الطريق

مطبوعات مكتبة مصر

الطريق

تأليف
نجيب محفوظ
الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

١

آغرورقت عيناه . رغم ضبطه لمشاعره وكراهيته أن يبكى أمام هؤلاء الرجال اغرورقت عيناه . وببصر مائع نظر إلى الجثمان وهو يحمل من النعش إلى فوهة القبر . بدا فى كفنه نحيلا كأن لا وزن له ، شد ما هزلت يا أماه ، وتوارت عن ناظريه تماما فلم يعد يرى إلا ظلمة . وسطعته رائحة التراب ، ومن حوله احتشد الرجال ففاحت أنفاس كريهة وعرق ، وفى الحوش خارج الحجرة ارتفع لغط النساء ، وانفعل برائحة التراب حتى عافت نفسه كل شيء . وهم بالانحناء فوق القبر ولكن يدا شدت على ذراعه وصوتا قال :

ـــ تذكر ربك ..

تقزز من ملمسه ولعنه من الأعماق . هذا خنزير كسائر من حوله من الخنازير . ولكن لحظة الوداع استردته بوخزة كالندم ، وقال إن معاشرة ربع قرن من الزمان لا تعنى فى هذه اللحظة شيئا ولا تساوى شيئا ، وتردد من بعيد صوت كالعواء ثم دخل الحجرة طابور من العميان فطوقوا القبر فى نصف دائرة ثم جلسوا القرفصاء . وشعر بأعين كثيرة تحدق فيه أو تسترق إليه النظرات ، إنه يعرف ما تعنيه هذه النظرات . وشد قامته الرشيقة فى عناد . يقولون لم يقف هكذا غريبا فى منظره وملبسه كأنه ليس واحدا منا . لم نحته أمه عن بيئته ثم تركته وحيدا ؟. إنهم لا يعزونك ولكنهم يدارون شماتتهم بك . ومذاق الحياة أمسى كالتراب . وبرز من الفوهة الترابى ومساعده فوقفا فوق سطح الأرض مرة أخرى وأقبلا يسدان القبر ثم يسويان الأرض فى نشاط وحيوية . ونادى السقاء على الماء ، ورتل العميان ، ثم ردد رئيسهم التلقين . وتساءل عما ستجيب به أمه . وقال إنها ستكون وحيدة حقا . وماذا يقول فى ذلك الخنازير ؟ . ها هو الخشوع يغشى جباههم كسحابة

صيف . وأدركه الضجر فتاق إلى الوحدة فى بيته وألحت عليه رغبة فى أن يعيد النظر فى كل شىء . ستحدق الأسئلة المحرجة بأمه فى ظلام القبر . ولن يساعدها أحد من هؤلاء الشياطين ، ولكن يومكم سيجىء . وانخفضت الأصوات فى نغمة حزينة موحية بالختام ، ووقف الطابور فى حال انتظار وتقدم الترابى منه خطوات . عند ذاك قال الواقف إلى يمينه :

ـــ دعه لى فلا تحاسبه إنى أدرى بهؤلاء الناس ..

وثار حنقه من جَديد ولكنه أدرك أن الطقوس قد انتهت وتضاعف شعوره بالوحدة . وألقى على المقبرة نظرة شاملة فارتاح لأناقتها وتراءى له بين قضبان النافذة اللبلاب والصبار والريحان التى تزركش جدار الفناء والأركان . كانت رحمها الله تحب الرفاهية فأعدتها للدارين ولكن لم يبق لها إلا المقبرة . وتحرك الناس فى بطء نحو الحوش فمضى إلى الباب الخارجى ليودع المشيعين . وصافحته النساء أولا ، ورغم ثياب الحداد والبكاء واللطم لم تختف من أعينهن نظرات الفجور ولا زايلت وجوههن القحة وفلتات التهتك . وتتابع الرجال ، شد حيلك وسعيكم مشكور ، من تاجر مخدرات إلى بلطجى ومن برمجى إلى قواد . وأتبعهم نظرة باردة وهو لا يشك فى أنهم يبادلونه نفس العاطفة . ومع ذلك لم ينسَ أنه مدين لهم وهو ما يؤكد سخطه دواما . وقال إنه قد انتهى منهم إلى الأبد ولكنه بلا نصير . وفى طريقه إلى مسكنه بشارع النبى دانيال لفحه هواء منعش معبق بأنفاس الخرِيف وبدت السماء غامضة فى مولد المغيب . مسكن النبى دانيال الذى شهد فترة بهيجة ناعمة من حياته ، ولا أثر للراحلة فى مسكنه إلا صوان كبير ونارجيلة مهملة تحت فراشها المهجور . وجلس فى شرفة تطل على ملتقى النبى دانيال بسعد زغلول يدخن سيجارة فجذب بصره استعداد قائم فى شقة على الجانب الآخر للطريق تسكنها أسرة أفرنجية ، فثمة بوفيه رصت عليه القوارير وأوعية الثلج ، وفى نهاية البهو تعانق رجل وامرأة بحرارة لا تناسب الوقت المبكر . وقال إنه ابتداء من اليوم سيعرف الحياة على حقيقتها . إنه وحيد بلا مال ولا عمل

ولا أهل ولم يبق إلا أمل غريب كالحلم ، إنه مطالب منذ اليوم بتأمين حياته ، وهى مسئولية لم يتحملها من قبل . إذ نهضت بها أمه وحدها ، ففرغ هو طوال الوقت لإمتاع شبابه اليافع . وأمس فقط لم يكن يفكر فى الموت بحال . فى مثل هذه الساعة أو قبل ذلك بقليل جاء الحنطور بأمه فغادرته معتمدة على ذراعه وسارت فى خطوات متثاقلة متخاذلة من الإعياء والضعف ، وقد وهنت وهزلت وكبرت ثلاثين عاما فوق عمرها الحقيقى الذى لم يجاوز الخمسين . هكذا تبدت بسيمة عمران فى آخر صورة لها ، وهى راجعة إلى بيت ابنها ، أو البيت الذى أعدته لابنها ، بعد أن قضت فى السجن خمس سنوات . وتأوهت قائلة :

ـــ أملك انتهت يا صابر ..

فحملها بين ذراعيه دون مشقة وهو يقول :

ـــ كلام فارغ ، ما زلت فى عز الشباب ..

واستلقت على فراشها قبل أن تنزع قطعة من ملابسها ، ثم أمالت وجهها نحو مرآة فى الصوان وقالت بحسرة وهى تنهج :

ـــ أملك انتهت يا صابر ، من يصدق أن هذا الوجه هو وجه بسيمة عمران !..

الآن . فى استدارة البدر كان . ووجنة موردة كالتفاح ، وأما الجسد الجسيم الهائل فلم يكن ليهتز هزة واحدة عند القهقهة ، وقهقهتها كانت تهتز لها المجالس .

ـــ لعنة الله على المرض ..

فقالت وهى تجفف وجهها بكمها رغم لطافة الجو :

ـــ ليس المرض وحده ولكنه السجن ، والمرض جاء من السجن ، أمك لم تخلق لذلك ، وقالوا الكبد والضغط والقلب . الله يمرض عيشتهم ، ترى ألا يمكن أن أرجع إلى ما كنت ؟

ـــ وأحسن ، عندك الراحة والطب ..

ـــ والمال ؟!

وامتعض عند ذلك فلم ينبس ، فسألته :

ـــ ماذا تبقى لك منه ؟

لم يخل من حذر وهو يجيب :

ـــ شيء لا يذكر ..

ـــ كنت حكيمة عندما كتبت بيت رأس التين باسمك وإلا لصادروه فيما صادروا من مالى .

ـــ ولكنى بعته عندما نفدت نقودى، كما قلت لك وقتها ..

فتأوهت وهى تضع راحتها على يافوخها :

ـــ آه يا رأسى ، ليتك أبقيت عليه ، كان فى يدك مال كثير ولكننى أنا التى عودتك على الحياة الحلوة ، أردت أن تعيش مثل الأكابر ، وأردت أن أترك لك ثروة لا يغرقها البحر ، ثم ..

ـــ ثم ضاع كل شيء فى خبطة واحدة ..

ـــ نعم ، منهم لله ، انتقام وضيع من رجل وضيع ، رجل طالما تنعم بنقودى ، ثم حقد على بسبب بنت لا تساوى ثلاثة ملاليم فتذكر فجأة الواجب والقانون والأعراض وأوقع بى ابن الزانية ، لذلك بصقت على وجهه فى المحكمة ..

وطلبت سيجارة بإشارة من يدها فأشعل لها سيجارة وهو يقول :

ـــ الأفضل ألا تدخنى الآن ، هل كنت تدخنين هناك ؟

ـــ سجائر وحشيش وأفيون ، ولكنى كنت قلقة عليك دائما ..

ودخنت رغم تهافتها ، وجففت وجهها وعنقها بيدها الأخرى :

ـــ وماذا عن مستقبلك يا بنى ؟

ـــ كيف لى أن أدرى ؟، ليس أمامى إلا أن أعمل برمجيا أو بلطجيا أو قوادا ..!

ـــ أنت !

ـــ حق أنك علمتنى حياة أجمل ولكنى أخشى ألا يكون ذلك فى صالحى ..

ـ أنت لم تخلق للسجون !

ـ وماذا فى الدنيا غير هذه الأعمال ؟

ثم مستدركا فى حدة :

ـ كم شمت بى الأعداء فى غيابك !

ـ صابر .. تجنب الغضب . إنه الغضب الذى أدخلنى السجن فما كان أسهل على أن أرضى الوغد الذى غدر بى ..

ـ فى كل مكان أصادف من يستحق السجن ..

ـ دعهم يقولوا ما يشاءون ولكن لا تستعمل قبضتك ..

فكور قبضته قائلا :

ـ لولا هذه القبضة لعرضوا بى فى كل مكان ، إن أحدا لم يجرؤ على ذكرك بسوء أمامى وأنت فى السجن ..

فنفخت الدخان فى غضب وقالت :

ـ أمك أشرف من أمهاتهم ، إننى أعنى ما أقول ، ألا يعلمون أنه لولا أمهاتهم لبارت تجارتى ..!

ابتسم صابر رغم الكآبة الشاملة فعادت تقول :

ـ إنهم مهرة فى خداع الناس بمظاهرهم ، الوجيه فلان .. المدير فلان .. الخواجا علان .. سيارات وملابس وسيجار .. كلمات حلوة .. روائح زكية .. لكننى أعرفهم على حقيقتهم ، أعرفهم فى حجرات النوم وهم يجردون من كل شىء إلا العيوب والفضائح ، وعندى حكايات ونوادر لا تنفد ، الأطفال الخبثاء القذرون الأشقياء ، وقبل المحاكمة اتصل بى كثيرون منهم ورجونى بإلحاح ألا أذكر اسم واحد منهم ووعدونى بالبراءة ، مثل هؤلاء لا يجوز أن يعيروك بأمك فأمك أشرف من أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم ، وصدقنى أنه لولا هؤلاء لبارت تجارتى ..

عاوده الابتسام فتأوهت قائلة :

— أين أيام الضحك أين ؟، أملك أحبتك بذل قواها ، ولك أعددت هذا المسكن الجميل بعيدا عن جوى كله ، وأرسلت مالى يجرى تحت قدميك فإذا جاءتك منى إساءة لا حيلة لى فيها فلا ذنب لى ، وليس فى الرجال من له نصف جمالك ورشاقتك ، غير أنه يجب أن تتجنب الغضب وأن تتعظ بما جرى لى ..

رنا إلى تعاستها بحزن ثم تمتم :

— سيعود كل شيء إلى أصله ..

— أصله ؟!، أنا انتهيت ، بسيمة أيام زمان لن تعود ، ولا سبيل إلى العمل من جديد ، لا الصحة تسمح بذلك ولا البوليس ..

ونظر إلى الأرض قائلا :

— لم يبق من ثمن البيت إلا القليل ..

— وما العمل ؟، يجب أن تعيش كما عودتك !

— لكنى لم أعرفك يائسة أبدا .

— إلا هذه المرة ..

— إذن على أن أعمل أو أن أقتل ..

أطفأت السيجارة ثم أغمضت عينيها إعياء أو طلبا للتركيز فقال صابر :

— لا بد من مخرج .

— نعم طالما فكرت فى ذلك وأنا فى السجن ..

لأول مرة فى حياته تزعزعت ثقته فى أمه . واستطردت المرأة :

— أجل فكرت طويلا ، ثم أقنعت نفسى بأنه لا يصح أن أصر على الاحتفاظ بك ما دام ذلك فى غير مصلحتك ..

حدجها بنظرة متسائلة من عينيه السوداوين فتمتمت بنبرة اعتراف منهزمة :

— أنت لا تفهم شيئا ولك حق ، الواقع أن الحكومة صادرتك ساعة صادرت أموالى ، لم يعد لى الحق فى امتلاكك أنت أيضا ، أدركت ذلك يوم صدور الحكم ..

وصمتت من شدة معاناة اليأس ثم واصلت :

— معنى هذا أنه يجب أن تهجرنى ..

تساءل بامتعاض :

— إلى أين ؟

أجابت بصوت لا يكاد يسمع :

— إلى أبيك ..!

رفع حاجبيه المقرونين فى ذهول هاتفا :

— أبى ؟!

فهزت رأسها علامة الإيجاب فقال :

— لكنه ميت ، أنت قلت إنه مات قبل مولدى ..

— قلت ذلك ولكنه ليس من الحقيقة فى شىء ..

— أبى حى !، شىء مذهل حقا ، أبى حى !

وجعلت ترمقه بنظرة استياء ومضى هو يقول :

— أبى حى !، لكن لم أخفيت عنى ذلك ؟

— آه جاء دور الحساب ..

— أبدا ، ولكن ألا يحق لى أن أسأل ؟

— أى أب فى الدنيا كان يمكن أن يهيىء لك من أسباب السعادة بعض ما هيأت لك ..

— لا أنكر شيئا من هذا أبدا ..

— إذن فلا تحاسبنى واستعد للبحث عنه ..

— البحث ؟!

— نعم إنى أتحدث عن رجل كنت امرأة له منذ ثلاثين عاما ثم لم أعد أدرى عنه شيئا ..

قطب فى حيرة وتهاوى جذعه الذى أطلقه الانفعال :

— أمي ما معنى هذا كله ؟

— معناه أني أوجهك إلى المخرج الوحيد من ورطتك ..

— لعله قد مات ..

— ولعله حي ..

— وهل أضيع عمري فى البحث عن شيء قبل التأكد من وجوده ؟

— ولكنك لن تتأكد من وجوده إلا بالبحث ، وهو خير على أى حال من بقائك بلا مال ولا أمل ..

— موقف غريب لن أحسد عليه .

— بديله الوحيد أن تعمل برمجيا أو بلطجيا أو قوادا أو قاتلا ، فلا بد مما ليس منه بد ..

— وكيف يمكن أن أعثر عليه ؟

تنهدت من الأعماق وهى تزداد تعاسة بالعودة إلى الماضى :

— أما اسمه فهو المسجل فى شهادة ميلادك ، سيد سيد الرحيمى ، وقد أحبنى منذ ثلاثين عاما وكان ذلك فى القاهرة ..

— القاهرة !، ليس أيضا فى الإسكندرية !

— إنى أعلم أن مشكلتك الحقيقية ستكون فى العثور عليه ..

— لم لم يبحث عنى هو ؟

— إنه لم يعلم بك ..

قطب صابر واستقرت فى عينيه نظرة احتجاج مكفهرة فقالت :

— انتظر ، لا تنظر إلى هكذا ، واسمع بقية الحديث عنه ، إنه سيد ووجيه بكل معنى الكلمة ، لا حد لثروته ولا نفوذه ، لم يكن فى ذلك الوقت إلا طالبا بالجامعة ومع ذلك كانت الدنيا تهتز لدى محضره . تابعها بنظرة تجلى فيها الاهتمام المشوب بالفتور فقالت :

— أحبنى ، وكنت بنتا جميلة ضائعة ، وحفظنى سرا فى قفص من ذهب ..

ـــ تزوجك ..

ـــ نعم ، وما زلت أحتفظ بشهادة الزواج ..

ـــ ثم طلقك ؟

تنهدت قائلة :

ـــ بل هربت !

ـــ هربت ؟!

ـــ هربت بعد معاشرة أعوام وأنا حبلى ، هربت مع رجل من أعماق الطين ..

بذهول وهو يهز رأسه :

ـــ شيء لا يصدق ..

ـــ وبعد قليل ستتهمنى بأننى المسئولة عن ورطتك ..

ـــ لن أتهمك بشيء فحسبنا ما بنا ، ولكن ألم يبحث عنك ؟

ـــ لا أدرى ، هربت إلى الإسكندرية ثم لم أسمع عنه شيئا ، وكثيرا ما توقعت أن ألقاه يوما فى أحد بيوتى ولكن عينى لم تقع عليه ..

ضحك فى فتور ثم قال :

ـــ وبعد ثلاثين عاما تدفعيننى للبحث عنه ..

ـــ أليس يدفعنا إلى ما هو أغرب من ذلك ، وستكون معك شهادة الزواج وستكون معك أيضا صورة الزفاف ، وسوف ترى بعينيك أنك صورة منه ..

ـــ عجيب أن تحتفظى بالشهادة والصورة ..

ـــ كنت أفكر فى مستقبلك ، وكنت فتاة فقيرة تعيش فى كنف بلطجى ، ولما أتانى النجاح صدقت نيتى على الاستئثار بك ..

ـــ ومع ذلك لم تتخلصى من بقايا الذكريات ..

جففت وجهها وعنقها بحركة حادة بعض الشيء وقالت :

ـــ هممت بذلك مرات ثم عدلت ، كأن ركنا فى كان يتنبأ بما سيقع ..

راح يذرع الحجرة فى حيرة ثم وقف أمام السرير وهو يسأل :

ـــ وإذا بعد الجهد والتعب أنكرنى ؟

ـــ من يرى بهاء صورتك وينكرك ؟!

عاد إلى الجلوس وهو يقول :

ـــ القاهرة مدينة كبيرة وأنا لم أزرها من قبل ..

ـــ من قال إنه اليوم فى القاهرة ؟ لم لا يكون فى الإسكندرية ، أو فى أسيوط أو دمنهور ، الحق أنه لم يطلعنى على حال من أحواله.أين هو اليوم ، ماذا يعمل ، أهو أعزب أم متزوج ؟، الله وحده يعلم ..

فلوح بيده كالغاضب وقال :

ـــ وكيف يراد منى العثور عليه ؟

ـــ ليس ذلك يسيرا بطبيعة الحال ولكنه ليس بالمحال ، وأنت لك معارف من ضباط البوليس والمحامين ، وليس من شخصية كبيرة إلا ولها فى القاهرة مقام ..

ـــ أخشى أن ينفد مالى قبل العثور عليه ..

ـــ لذلك يجب ألا تتوانى عن البحث ..

وتفكر قليلا ثم سأل :

ـــ وهل يستحق يا ترى كل هذا التعب ؟

ـــ بلا أدنى شك يا بنى ، ستجد فى كنفه الاحترام والكرامة ، وسيحررك من ذل الحاجة إلى أى مخلوق بما سيهيئ لك من عمل غير البلطجة أو الجريمة ، فتظفر آخر الأمر بالسلام ..

ـــ وإن وجدته فقيرا !.. ألم تكونى أنت غنية لا يحيط بثروتك حصر ؟.

ـــ أؤكد لك أن المال ليس إلا حسنة من حسناته ، وقد كنت غنية حقا ولكنى لم أهيئ لك كرامة ولا عملا ولا سلاما ، وكنت تسير ملوحا بلكمتك لتخرس الألسنة المتوثبة للنيل منك ومن أمك ..

عاد إلى التفكير فخيل إليه أنه يحلم ، ثم سألها :

ــ هل تؤمنين حقا بأنني سأعثر عليه ؟

ــ شيء يحدثني بأنه حي وأنك إذا لم تيأس أو تتوان فسوف تعثر عليه ..

هز رأسه وهو بين الحيرة واليأس وتمتم :

ــ هل حقا أمضي للبحث عنه ؟. وإذا علم أعدائي بهذه الحكاية أفلن يجعلوا مني نادرة جنونية ؟!

ــ وماذا يقولون إذا وجدوك آخر الأمر قوادا ؟ الحق أنه لا خبرة لك فيما أنت ذاهب إليه ..

أغمضت عينيها بعد ذلك وغمغمت «إني تعبة جدا» فرجاها أن تنام على أن يستأنفا الحديث غدا . وخلع حذاءها ثم غطاها ولكنها أزاحت الغطاء عن صدرها بحركة عصبية فلم يعده ، وما لبث شخيرها أن تردد . واستيقظ حوالى التاسعة من صباح اليوم التالي بعد ليلة سهاد ممزقة بالفكر . وذهب إلى حجرتها ليوقظها فوجدها ميتة . ترى هل ماتت وهي نائمة أو أنها نادته آخر الليل فلم يسمع؟. على أي حال وجدها ميتة وهي لم تزل بالملابس التي غادرت بها السجن . وها هو الآن يتفحص بعناية ودهشة صورة الزفاف . الصورة التي جمعت بين والديه منذ ثلاثين عاما . وها هو يركز بصره على صورة أبيه ، على وجهه بالأخص . شاب جميل حقا ، مفعم بالشباب والحيوية ، ونظرته تفيض بالاعتداد بالنفس ، ووجهه المائل للبياض ، المستطيل الممتلئ ، ذو الجبهة العالية ، والطربوش المائل إلى اليمين ، لا يمكن أن ينسى . ولم تكذب أمه حين قالت إنه صورة منه ولكنه كما يكون القمر على الورق صورة من القمر في كبد السماء.

وفي شقة الجيران أخذ المدعوون يتوافدون وأنغام الموسيقى تترامى ، هذا صوت القرآن يتلى في غرفة المرحومة . والآن أين هي الحقيقة وأين هو الحلم ؟. أمك التي ما تزال نبرتها تتردد في أذنك قد ماتت ، وأبوك الميت يبعث في الحياة . وأنت المفلس المطارد بماض ملوث بالدعارة والجريمة تتطلع بمعجزة إلى الكرامة والحرية والسلام .

٢

ليبق الأمر سرا ، وإذا خاب مسعاه فليستعن بمعارفه ، وليبدأ بالإسكندرية فهذا طبيعى جدا ، وإن يكن من المستبعد أن يقيم بها شخص كأبيه ولا تدرى به أمه . واتخذ من دليل التليفون دليله ، حرف السين ، سيد ، سيد ، سيد .. حتى استقرت عيناه على سيد سيد الرحيمى . آه لو يدلله الحظ ويعفيه من متاعب لا يدرى مداها أحد . سيد سيد الرحيمى صاحب مكتبة المنشية . أين هذا من جاه أبيه ؟ والمنشية كانت معبدا لأمه طيلة ربع قرن من الزمان ، ولكن لعله يجد فى الاسم مفتاحا للغز . ووجد صاحب المكتبة فى الخمسين من عمره ، وذا سحنة لا تمت بسبب إلى صورة أبيه ، وأخبره أنه يبحث عن سمى له وأطلعه على صورته مخفيا صورة أمه ، وقال الرجل :

ــ لا أعرف صاحب هذه الصورة .

ولما أوضح له أنها صورة التقطت منذ ثلاثين عاما قال :

ــ ولا أذكر أنى رأيته ..

ــ ألا يمكن أن يكون قريبا من بعيد ؟

ــ نحن فى الأصل من الإسكندرية ، وجميع أهلى يقيمون هنا عدا بعض أقارب فى الريف من ناحية الأم ، ولكن ما سبب بحثك عنه ؟

وارتبك لحظة ولكن سرعان ما أجاب :

ــ إنه صديق قديم للمرحوم أبى ، أليس للرحيمى فروع فى بلاد أخرى ؟.

وتفحصه بنظرة لم تخل من ريبة وقال :

ــ الرحيمى هو جدى ، ولا ينتسب إليه من أسرتنا إلا أنا وأختى وليس لنا فروع من ناحيته خارج الإسكندرية .

ولا سبيل إلى الصبر أو الطمأنينة لمن لم يعد يملك سوى مائتين من الجنيهات .

وهى تتناقص بمرور الساعات ولا أمل بعدها فى حياة كريمة . ومرضت عيناه من التفحص المركز للوجوه وأعياه القلق . ولجأ إلى محام من معارفه يشاوره فقال له :

ــ لعل له رقم تليفون سرى ..

وتطوع لمعاونته فى الكشف عنه دون نتيجة ، ثم قال له :

ــ اسأل مشايخ الحارات ..

فقال صابر بإنكار :

ــ إنه وجيه بكل معنى الكلمة ..

ــ إن ثلاثين عاما خليقة بأن تفعل الأعاجيب ، بل فى نيتى أن أكلف صديقا من ضباط البوليس ليتحرى عنه فى السجون !

ــ السجون ؟!.

ــ لم لا ؟، السجن كالجامع مفتوح للجميع ، وأحيانا يدخله إنسان لنبل فى أخلاقه لا لاعوجاج .

وضحك المحامى ضحكة مقتضبة ثم قال :

ــ ولكن لنبدأ بالشهر العقارى فلعله من الأعيان المتخفين .

ــ ولم يكن فى كشف السجون اسمه ولا فى سجلات الملاك فلم يجد مفرا من اللجوء إلى مشايخ الحارات . واستبدل إلى حين اقتراحا للمحامى بالإعلان فى الصحف إذ أن ذلك يذيع مشكلته العجيبة على الملأ ويمكن أعداءه الكثيرين فى الإسكندرية من العبث به فأجل تنفيذ الفكرة إلى ما بعد مغادرة المدينة . ودار على مشايخ الحارات من العطارين إلى كرموس ، ومن رأس التين إلى محرم بك . وكلما ذكر اسم سيد سيد الرحيمى سئل :

ــ عمله ؟!

ــ لا أدرى عنه شيئا إلا أنه من الوجهاء وهذه صورته منذ ثلاثين عاما .

ــ ولم تبحث عنه ؟

— إنه صديق قديم لأبى وقد كلفت بالبحث عنه .

وتحدق فيه الأعين باستغراب :

— وهل أنت متأكد من أنه حى ؟

— لست متأكدا من شىء .

— وكيف عرفت أنه فى الإسكندرية ؟

— مجرد أمل ليس إلا .

ثم يجيئه الجواب النهائى كجدار السجن :

— غير معروف عندنا .

ولم ترتح عيناه لحظة واحدة من التهام الوجوه ، ولم يشعر فى دوامة الاستطلاع بخطى الخريف حتى أيقظه مطر مباغت عند لسان الكورنيش الموغل فى البحر فانسحب مسرعا إلى الميرامار ، ورفع عينيه إلى سماء أظلت جو الظهيرة بقطع من الليل . وسمع صوتا يقول مرحبا :

— تعال .

صافحها وجلس .

— لم أتمكن من تعزيتك ولكنى انتظرت أن تزور « الكباريه » .

— ألست فى حداد ؟

— الكنار مكان مناسب للمحزونين ، والجميع يتساءلون أين أنت ؟

وتوقف المطر فوقف من فوره معتذرا بمشاغل فقالت بدورها هامسة :

— خبرنى هل أنت فى ضائقة مالية ؟

آه هل بدءوا يتقولون ؟. وقالت بإغراء :

— مثلك لن يعز عليه المال إذا أراده !

فصافحها مرة أخرى ببرود ثم ذهب . مثلك لن يعز عليه المال . أجل فأذعن لنداء القوادة . ذلك ما يتمناه أعداؤه ولكن دونه الموت . وتساءل ماذا بقى فى الإسكندرية ؟.

وبسط راحتيه أمام قارئ الكف ولكنه لم يقل جديدا . وزار العارف بالله سيدى الشيخ زندى بعطفه الفراشة . تربع بين يديه فى حجرة تحتانية مغلقة الشيش دواما فهى تعيش فى مغيب متصل وتتلوى فى جوها سحائب البخور . وشم الشيخ منديله ثم أحنى رأسه مستغربا ثم قال :

— من جد وصل ..

وترامى إليه هدير الموج من الأنفوشى فقال بأمل « بداية حسنة » وقال الشيخ :

— وتعب كليالى الشتاء .

اليوم بسنة وكم هو باهظ التكاليف .

— وستنال مطلوبك .

وفى جزع سأله :

— ما مطلوبى ؟

— إنه ينتظرك بفارغ الصبر .

— هل يدرى بى ؟

— إنه ينتظرك .

لعل أمه لم تقل له كل شىء .

— إذن هو حى .

— الحمد لله .

— وأين أجده فهذا ما يعنينى حقا ؟

— الصبر .

— لا يمكن الصبر إلى ما لا نهاية .

— أنت فى البدء .

— فى الإسكندرية ؟

أغمض الرجل جفنيه ثم تمتم :

ـــ أبشرك بالصبر .

وقطب مغتاظا ثم قال :

ـــ لم تقل شيئا .

فقال الشيخ محولا عنه رأسه :

ـــ قلت كل شيء .

وخرج إلى جو عاصف تركض فيه السحب مثقلة بالظلمات . وقال دجالون وعاهرات والنقود تبعثر بلا حساب . وعزم على بيع أثاث شقته تمهيدا للسفر إلى القاهرة .

وكان قد باع التحف الرشيقة فى محنته ليواجه بثمنها نفقات معيشته الخيالية . وكره دعوة السماسرة إلى شقته فقصد المعلمة نبوية صديقة أمه الحميمة والشخصية الوحيدة التى لم يكرهها فى ذلك الوسط . وقالت وهى تقدم خرطوم النارجيلة :

ـــ سأشترى أثاثك على العين والرأس ولكن لماذا تهجر بلدك ؟

ـــ سأشق لى طريقا فى القاهرة بعيدا عن الخلق !

ـــ الله يرحيم أمك ، أحبتك ودللتك فسدت فى وجهك سبل الرزق !

وأدرك ما تعنيه فقال :

ـــ لم أعد أصلح لهذه المهن !

ـــ وماذا تفعل فى القاهرة ؟

ـــ صديق هناك وعدنى خيرا .

قالت باسمة عن ثغر ذهبى :

ـــ أعمالنا لا تشين إلا المغرورين ، طاوعنى !.

فبصق فى موقد كبير ينفث بخور الهند .

وتعلق بصره بالإسكندرية والقطار يرج الأرض مبتعدا . رآها مدينة الأطياف مغروسة فى حلم الخريف تحت مظلة هائلة من السحب ، وهواء بارد

معبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الأنيقة شبه الخالية . وودعها هى وأمه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة . وكيف يكون الحال لو أن من تبحث عنه قد خلفته وأنت لا تدرى فى ركن من الإسكندرية لم يبلغه مسعاك ؟. ومن ضمن لك أن يكون حظك فى القاهرة خيرا منه فى الإسكندرية ؟ وكم فى البحر من أمواج وكم فى السماء من نجوم . وعجيب أن يكون بعيدا هذا البعد كله من تحمل روحه وجسده بين جنبيك . وما أبعدك عنه إلا شهوة عمياء انتزعتك من أحضانه لتلدك فى ماخور . وكان يسألها عن أبيه فتجيبه « كان موظفا محترما ورجلا طيبا ولكنه مات فى ريعان الشباب » ، وأهله أليس له أهل ؟ فتجيبه « لا أعرف له أهلا ! » . لذلك ظن طويلا أنه ابن رجل من البلطجية وأنه ابن زنا . وأنت اليوم وحيد بلا أهل ولا أصدقاء كأنك جنس غريب . وهاله الزحام فى محطة مصر فألح عليه شعوره بالوحدة .

ونازعته نفسه إلى العودة فى أول قطار ولكنه أودع حقيبته الأمانات ثم خرج إلى الميدان والشمس تميل ميلة العصر . ودار رأسه مع السيارات والبصات والعابرين . وترامى الميدان فى غاية من الاتساع وبلا شخصية ، وتقابل فوق أديمه متناقضات من أشعة حامية وهواء لطيف ، وشوارع مزدهرة وأخرى خربة . وقضى ساعة وهو يبحث عن فندق رخيص فى الميدان وما حوله حتى وجد نفسه فى شارع الفسقية ذى البواكى أمام فندق « القاهرة » . وقف على الطوار المسقوف المقابل للفندق على كثب من شحاذ مستلق لصق الجدار يتغنى بمديح نبوى . وانعكس عليه من الشارع طابع عمل ودمامة وضجر لكثرة الدكاكين على الصفين وعربات النقل وأكوام البضائع ولكنه أمل أن يجده أرخص فندق فى الناحية . وهو مبنى قديم ، ترابى الجدران ، مكون من أربعة أدوار وعلية فوق السطح ، وذو باب مرتفع مقوس الرأس كوجه باك ، يفتح على مدخل مستطيل ينتهى إلى السلم ويتوسطه مكتب جلس إليه رجل إلى جانبه امرأة . الرجل طاعن فى السن أما المرأة .. رباه إنها فتاة فى عز الشباب تشد عينيه

بقوة ليست بلا سبب . إنها توقظ مشاعر نائمة وتنبه ذكريات مدفونة فى الضباب . العطفة المبلطة الصاعدة من الأنفوشى المشبعة بهواء البحر ورطوبته المالحة وانفعالات الجنون الملفعة بالظلام . وسرعان ما توثقت علاقات خفية بينه وبين الفندق كأنما جاءه على ميعاد ووجد نفسه يعبر الطريق نحوه مدفوعا برغبة فى الاستطلاع والكشف وإن يكن غير مصدق لظنونه تماما ، وصوت الشحاذ يتردد عاليا فى نبرة أعجبته :

طه زينـــــــة مديحى   صاحب الوجه المليحى
النصارى   واليهود
أسلموا على يديه

السمرة الرائقة النقية ، والعينان اللوزيتان الدعجاوان ، وبريقهما المضىء المفعم بالنبض والاقتحام . أين من هذا القطة المهزولة ذات الثوب الباهت الواحد وأظافرها الجارحة ؟. إنها تذكره بها بعنف تاركة له تخيل ما صنع الزمن فى عشر سنوات أو يزيد . والاسم القديم ضائع كأبيه ، ولكن رائحة البحر تملأ خياشيمه وها هو يرتجف لتذكر الليل البهيم ، ورغم ذلك كله فقد ظل أبعد ما يكون عن اليقين . وبنت العطفة ذكرى عابرة لا قيمة لها ولكنها تبعث الآن فى صورة فريدة ذات سطوة خطيرة الشأن كبعث أبيه من الموت الذى جاء به من البحر إلى هذه المدينة المثيرة . استقبلت الفتاة القادم بنظرة قطيرة ولكنها متغلغلة ثم أدارت وجهها نحو استراحة الفندق إلى يمينها . ووقف صابر أمام المكتب والعجوز عاكف على دفتر يطالعه من خلال عدسة مكبرة يمسك بمقبضها المعدنى الصغير بيد مرتعشة .

ولم ينتبه العجوز إلى القادم لشيخوخة حواسه فيما بدا فأدام الشاب النظر إلى عارض الوجه الذى شغله ، مكتشفا آيات تؤكد ظنونه وآيات تبددها ، ثم تحول الوجه إليه بنظرة ناقدة لانتهازيته فربتت على ساعد الرجل لتنبهه ، وعند ذلك بادره صابر قائلا :

— مساء الخير يا والدى !

رفع الرجل إليه وجهه ويده لا تكف عن الارتعاش . وهو وجه من الصعب التنبؤ عن صورته الأصلية إذ اختفى أديمه تحت قناع من الأخاديد والتجاعيد ، وبرز أنفه مقوسا حادا مجدورا ، واحتارت فى عينيه الناضبتين نظرة باهتة ممصوصة كأنما لم تعد تعنى برؤية العالم ، وقال صابر :

— إنى أسأل عن سعر الحجرة ..

— ريال فى الليلة ..

— ولمن يقيم أكثر من أسبوعين ؟

— الريال عملة لا قيمة لها اليوم ..

— قد أقيم شهرا أو أكثر تبعا لمشيئة الله .

فأمسك الرجل عن الكلام إعراضا عن المساومة وهنا رأى صابر طربوشه الطويل الغامق لأول مرة ، وتمتم :

— كما تشاء .

وراح يملى عليه الاسم والمكان الذى جاء منه ولما سئل عن عمله أجاب :

— من الأعيان !

وقدم له بطاقته الشخصية . وجعل يسترق النظر إلى الفتاة طوال انشغال العجوز بالبطاقة .

والتقت عيناهما مرة ولكنه لم يقرأ فيهما المعنى الذى يتلهف عليه . وبسبب انفعاله وحده راح يقنع نفسه بأنها هى هى .. ولفحه هواء البحر فى الركن المظلم وهو نصف عار ، وملأت أنفه رائحة القرنفل المنبعثة من الشعر المبعثر . وثمل بشعور تفاؤل عجيب فقال إنه على نحو ذلك سيعثر على أبيه . والمؤكد بلا أدنى شك أن هذه الفتاة على استعداد لشىء ما . إنها تقف منه موقفا حياديا فى الظاهر ولكنها تخاطب ماضيه وأعماقه بألف لسان . ولا شك أن وراء هذه القشرة الناعمة الصامتة اللامبالية مدينة مسحورة . ولو كان الظرف غير الظرف لدعاها إلى الرقص واحتواها بين ذراعيه وقال لها بكل جرأة كيف يرضى بالعيش تحت

هذا القبو من ترطب جسده بهواء البحر فى عطفة القرشى . ورد العجوز إليه البطاقة قائلا :

— إذن فأنت من الإسكندرية ؟

فهز رأسه بالإيجاب مبتسما فغمغم الرجل بكلمات مبهمة ، فقال بمكر راميا الفتاة بنظرة سريعة :

— أراهن على أنك تحب الإسكندرية !

وابتسم جانب فم العجوز وحده ، وعلى خلاف توقعه أضربت الفتاة عن متابعته فشعر بخيبة ، ثم خطر له أن يسأله :

— هل عرفت يوما سيد سيد الرحيمى ؟

فضيق الرجل عينيه ثم قال :

— غير مستبعد أنى سمعت عنه ..

تركز صابر فى اهتمام أنساه كل شىء حتى الفتاة نفسها :

— متى وأين ؟

— لا أذكر ، لست متأكدا ..

— لكنه من كبار الوجهاء ..

— عرفت كثيرين منهم ولكنى لم أعد أذكر أحدا ..

ومع أنه آثر ألا يزيد إلا أنه تمادى فى التفاؤل وقال إنه غير بعيد أن يهتدى إلى مكان أبيه اليوم أو غدا . والتقط فى اللحظة المناسبة نظرة من عينى الفتاة قبل أن تستردها . قرأ فيها شكا وما يشبه السخرية وكأنها تتساءل عما دعا هذا الوجيه إلى النزول بفندقها المتواضع . ولم يضايقه ذلك وقال إن الحقيقة ستنجلى عندما تعرف مهمته وسوف تعرف عاجلا أو آجلا . ترى هل تذكرته ؟. وشعر بغرز الأظافر فى ساعده عقب المطاردة البارعة التى بدأت من ساحل الصيادين بالأنفوشى واستقرت فى الركن المظلم بعطفة القرشى ، ولفح هواء البحر بدعابته القاسية نصفه العارى . ولكن أين كان أبوها فى ذلك الوقت ؟، ومتى انتقل إلى

إدارة هذا الفندق ؟!. ونادت المرأة قائلة :

ـــ عم محمد يا ساوى .

فجاء عجوز من مجلسه عند الباب ، عميق السمرة مائل للقصر دقيق الجسم تتكون ملابسه من طاقية بيضاء وجلباب رمادى مقلم ومركوب ، فأشارت المرأة إلى صابر قائلة :

ـــ حجرة رقم ١٣ .

ابتسم صابر لدى سماعه الرقم ، ثم استأذن فى الذهاب لإحضار حقيبته ، ولما عاد تبع عم محمد الساوى إلى الحجرة فى الدور الثالث . وغادرها الرجل ثم دخل خادم يحمل الحقيبة . خادم بين الشباب والكهولة ، سريع الحركة بدرجة لا تتناسب مع العمل الذى يؤديه ضيق العينين جدا مستديرهما ، صغير الرأس ، يوحى منظره بالسذاجة . وسأله عن اسمه فأجاب :

ـــ على سريقوس .

وآنس فى نبرته امتنانا بدرجة أشعرته بالقدرة على امتلاكه وقتما يشاء ، وسأله :

ـــ هل العجوز الجالس إلى المكتب هو صاحب الفندق ؟

ـــ نعم . عم خليل أبو النجا ..

وهم بسؤاله عن الفتاة ولكنه كبح رغبته عن حكمة إلى حين ، وحذر نفسه قائلا : إن السذاجة سلاح ذو حدين !. ولما خلا له المكان شمله بنظرة سريعة فتركت فى نفسه انطباعا بالقدم . السقف العالى والسرير ذو الأعمدة والكنصول ، وقال إن أباه كان يعجب بهذا المنظر حينما أحب أمه . ودلف من نافذة عاليه وأطل على ميدان صغير فى الطرف الشمالى من الشارع ، تتوسطه فسقية تعج نافورتها رذاذا على غلمان مهللين . وأضاء المصباح ثم جلس على كنبة تركية قديمة . وراودته أخيلة جنسية . وتخللتها أحلام بالعثور على أبيه . أما نداء العينين اللوزيتين المضيئتين فعجيب كل العجب . ولعلها الآن تفكر فى أمره

وتساءل ولكن ليس ثمة ما يقطع بأنها هى هى . فى زحمة المولد نهرته قائلة لا تقترب منى هكذا ، فقال متظاهرا بالكبرياء : لم تقلها بنت قبلك . فأجابت بكبرياء أشد : ولكننى أقولها وأعيدها . وذهبت فى صحبة امرأة شرسة والهواء يلعب بضفيرتيها فأين كان عم خليل ؟!. وعيناك اليوم التقت بعينيها أكثر من مرة وتجلت معان ، ولكن لم يلتمع بينهما ما يوحى بذكريات مشتركة . لم تقل عيناها إنها تذكر المجلس فوق سور الكورنيش عند قوارب الصيد المقلوبة . والأحاديث المفتعلة للتستر على الرغبات الجامحة . وقبلة خطفت أعقبتها معركة غير حاسية . وعندما أعيتك الحيل صحت سأقتلع يوما أظافرك . أما يوم المطاردة الرائعة وصراع الركن المظلم وشذا القرنفل والهواء المشبع برائحة البحر فكانت نصرا صريحا ، ثم تلاه اختفاء وصمت ، لا هى ولا الأم الشرسة ، وأسف دام طويلا ، حتى انتقلت أمك من حال إلى حال واستقر بك المقام فى الشقة الأنيقة بالنبى دانيال . من أدراك أن لهذا الفندق علاقة بعطفة القرشى ؟!. وأن هذه الفتاة المثيرة هى تلك البنت القرنفلية ؟!. على أى حال فهذه الفتاة تثير عاصفة فى دمك . وفى سواد مقلتيها ترى الليالى المعربدة بأنغامها الجنونية . وما أحوجك إلى دفء الشهوة المعزية فى فترات الراحة من البحث ، وقيمة ذلك تتضاعف للوحيد الذى لا أهل له ولا صاحب له . وعندما تجىء المعجزة ستقول له :

ــ أنا صابر ، صابر سيد سيد الرحيمى ، هاك شهادة الميلاد ، وهاك شهادة الزواج ، وانظر جيدا فى هذه الصورة ..

عند ذاك سيفتح لك ذراعيه وتنجاب عنك الوساوس إلى الأبد . وصرت امرأة أنيقة بكل معنى الكلمة ، أين البنت المغطاة بملح البحر ؟. أين رائحة غفلة العذراء ؟!

٣

استيقظ مبكرا بعد ليلة لم ينم فيها سوى ثلاث ساعات . ووجد رغم ذلك نشاطا لم يحلم به من قبل . وفتح النافذة فلم ير المنظر الذى فى غفلة توقعه ، منظر عمارات النبى دانيال وسعد زغلول وزرقة البحر على مرمى البصر وهواء الإسكندرية العامر بالفتن . رأى سماء ملفعة بالسحب السمراء ، وفى الأفق الشرقى تضح الستار ببياض ناصع ، وعلى الأرض الخالية سعى فوج من العمال والباعة ، وفى لحة واحدة تجلت لمخيلته صورة أبيه والوجه الدافئ المفعم بالإثارة ، وجاءه على سريقوس بالفطور إلى حجرته فأكل بشهوة عظيمة ، ولما رجع الخادم ليحمل الصينية الفارغة سأله :

ـــ من الفتاة التى كانت تجلس إلى جانب عم خليل أمس ؟

ـــ زوجته !

ليعترف بأن هذا لم يجر له فى بال ، وكم بدا له مزعجا :

ـــ من الإسكندرية ؟

ـــ لا أدرى ..

ـــ متى امتلك عم خليل هذا الفندق ؟

ـــ لا أدرى ، إنى أعمل هنا منذ خمس سنوات فقط .

ـــ وهل كان وقتذاك متزوجا .

ـــ نعم ..

هى بنت عطفة القرشى . اشتراها العجوز هناك من المرأة الشرسة . وصنع منها امرأة حسناء طاغية ، ولكن عليه هو أن يتفرغ لمهمته قبل أن ينفد آخر ما يملك من نقود . ووجد عم خليل أبو النجا بمجلسه وراء المكتب وهو يحادث عم محمد الساوى الجالس إلى يمينه . ولمح فى طريقه نفرا من النزلاء يجلسون فى

الاستراحة ما بين متناول لفطوره وقارئ لجريدة . جاء بكرسى أمام المكتب ثم جلس رافعا يده بالتحية وهو يقول :

— عن إذنك دليل التليفون .

وفر الصفحات حتى عثر على حرف السين . سيد . سيد سيد .. وسيد سيد الرحيمى !. وخفق قلبه بقوة . هذا هو فى مدينته . ليس كصاحب مكتبة المنشية . والمهنة ؟. طبيب بميدان الأزهار وأستاذ بكلية الطب، . كما يحدث للوجهاء وأبناء الوجهاء . واستخفه فرح فتمتم :

— الظاهر أن ربنا سيرضى عنى ..

فنظر عم خليل بعينيه المذكرتين بالآخرة فقال :

— الظاهر أنى سأنجح فى المهمة التى جئت من أجلها من الإسكندرية .

فغمغم العجوز :

— جميل أن ينجح إنسان .

كما نجحت فى شراء الفاتنة !. ورآه ما زال ينظر إليه مستطلعا فقال :

— إنى أبحث عن رجل هو كل شىء فى حياتى .

فدعا له محمد الساوى قائلا :

— ربنا يحقق مقاصدك .

وقال عم خليل أبو النجا .

— لا يجىء أحد إلى هذا الفندق للإقامة ولكن لمهمة تستغرق ليلة أو أسبوعا أو شهرا ثم يمضى إلى حال سبيله .

— هذا طبيعى جدا .

— ولذلك فهم يتجاورون فى الغرف والموائد والاستراحة ويندر أن يعرف أحد منهم الآخر .

— يخيل إلى أن عملك مسل جدا ؟

— لا شىء مسل على الإطلاق !

ومغالطة الزمن أليست مسلية ؟!. وسمع وقع حذاء نسائى فأجل قيامه الذى هم به . وجاءت الزوجة مدملجة الجسم فى جونلا سوداء وبلوزة حمراء مطوقة الرأس والخدين بإشارب أبيض منمنم . ووشى خطرانها باكتنـار سوى هو الوسط المثالى بين النحافة والبدانة ، فسرعان ما ثمل أنفه بعبير أنثوى مسكى عصف بعقله وقلبه ، وهى وإن لم تبتسم إلا أن عينيها عكستا نظرة راضية موحية كأرض خصبة لم تزرع بعد . ونهض عم محمد الساوى وهو يحبك معطفا رماديا قديما ، أما عم خليل فقد رفع إليها وجهه متمتما :

ـــ نويت بالسلامة ؟

فقالت بصوت حلقى دسم :

ـــ فتك بعافية .

ومضت إلى الخارج يتبعها عم محمد الساوى . أنت سر من الأسرار يا عم خليل . ووجهك يصلح رمزا للموت كعلم القرصان . ولم يرتـكب أنـاس الأخطاء بلا تبصر ؟. وقام متظاهرا بالهدوء فحيا الرجل وغادر الفندق . وسبقته عيناه إلى كافة أنحاء الطريق حتى رأى المرأة والعجوز يميلان مع ميدان الفسقية فأسرع فى مشيته حتى لحق بهما . والتفت عم محمد نحوه فابتسم كالمعتذر وقال :

ـــ لا تؤاخذنى يا عم محمد ، أود أن أعرف الطريق إلى ميدان الأزهار ؟.

والتفتت نحوه المرأة فى شيء من الدهشة . ووقف عم محمد ليصف له طريق الوصول فاضطرت المرأة إلى الانتظار . وتظاهر بالإنصات إلى كلام عم محمد دون أن يعى منه كلمة ، وكلما وجد فرصة آمنة حدج المرأة بنظرة فتتلقاها بالرضى الهادئ المثير للطموح بلا دليل . انتهى من شرحه فشكره ثم ذهب . ترى، أين هى ذاهبة مع كلب الحراسة ؟. وألم تكن جرأته سابقة للأوان ؟. إنه دائما جرىء غير أن الجرأة هذه المرة قد تفسد عليه البحث أو تعرقله . وبلغ ميدان الأزهار مستعينا بالمارة ولم يجد فى العيادة سوى التمرجى . وأخبره الرجل أن الطبيب يحضر عادة حوالى الثانية عشرة فجلس لينتظر . هل ترددت أنفاس أبيه

فى هذه الشقة ؟. ها هو القلق يساوره والجزع . والأمل واليأس . وكلما تقدمت الساعة قل صبره . وإن وجد أباه حقا فكيف يكون موقفه منه ؟. كيف يتصرف أن أنكره أو طرده ؟. ولكنه سيستميت فى الدفاع عن حقوقه ، ولذلك تبدى فى أحسن مظهر ، ولم يخف عليه أن التمرجى رمقه باحترام وإعجاب !. ولكنه تذكر أنه لعجلته واضطرابه لم يعرف اختصاص الدكتور !. وخرج من حجرة الانتظار إلى الصالة فجلس فى قبالته التمرجى وسأله :

— من فضلك ما اختصاص الدكتور ؟

— القلب !.. حضرتك طبعا ..

— أردت أن أتأكد ، أصلى من الإسكندرية !

وشعر بسخافة أسئلته ولكنه لم يبال ، بل عاد يسأله :

— هل عندك فكرة عن عمره ؟

فأجاب الرجل مندهشا :

— لا أدرى عن ذلك شيئا !

— ولكنك تفرق ولا شك بين الشباب والكهولة !

— إنه أستاذ بالكلية !

— وهل هو متزوج ؟

أعلن التمرجى عن مدى استغرابه بضحكة ثم قال :

— متزوج وأب ، وله ابن طالب بالكلية ..

عقبة وأى عقبة تعترض أمله فى القبول ، وسيكون للأسرة رأى فى العضو الجديد القادم من ماخور ولا مؤهل له غير جماله المبذول للفجور . ولكن إصراره بلغ المنتهى . وجاء المرضى تباعا حتى امتلأت الحجرات . ثم دعاه التمرجى إلى حجرة الكشف . ونفخ سحب القلق والوساوس ودخل . رأى وجها لا يمكن أن يرجع بحال إلى أصل الصورة التى يحملها ولكن من يتصور أن أمه — فى آخر ليلة لها — يمكن أن ترجع إليها ؟. وجلس أمام مكتب الدكتور وراح يجيب على

أسئلته التى شرع فى تدوينها فى دفتر كبير :

ـــ اسمى صابر سيد سيد الرحيمى .

ضحك الدكتور قائلا :

ـــ عال : أنت إذن ابنى ، وما عمرك ؟

ـــ الواقع أننى لا أشكو مرضا على الإطلاق !

فحدجه بنظرة متسائلة فقال :

ـــ إنى أبحث عن سيد سيد الرحيمى ..

ـــ عنى أنا ؟!

ـــ لا أدرى ولكن تفضل بالنظر فى هذه الصورة !

تفحصها الدكتور ثم هز رأسه بالنفى .

ـــ ليست صورة حضرتك ؟

ضحك قائلا :

ـــ بالتأكيد لا ، ومن هذه الفتاة الجميلة ؟

ـــ أليس لأحد من أقربائك ؟ لاحظ أن تاريخها يرجع إلى ثلاثين عاما مضت ..

ـــ ولا هى لأحد من أقربائى .

ـــ حضرتك من أسرة الرحيمى ؟

ـــ والدى سيد الرحيمى ، كان موظفا بالبريد .

ـــ أليست للأسرة فروع لم تعرفها ؟

ـــ أسرتى محدودة أصلا وفرعا !

قام يائسا وهو يقول :

ـــ آسف على إزعاجك ، ولكنك ربما سمعت عن أحد الوجهاء بهذا الاسم ..؟

ـــ لا أعرف وجيها بهذا الاسم ، ولكن ما الحكاية بالضبط ؟

ـ الحكاية أنى أبحث عن وجيه يدعى سيد سيد الرحيمى ، صاحب هذه الصورة منذ ثلاثين عاما .

ـ لعله هنا أو هناك وأنا على أى حال لست مرجعا فى هذه الشئون .

وقضت نبراته بإنهاء الحديث فحياه وانصرف . دخل أول قهوة صادفته فجلس إلى البار ثم طلب براندى . ها هو يبدأ من جديد . وما إغراء دليل التليفون إلا خدعة سخيفة . وتبدد التفاؤل الوهمى الذى اجتاحه منذ رأى زوجة عم خليل . وتذكر سلسلة الأبحاث التى قام بها فى الإسكندرية من الشهر العقارى ومشايخ الحارات وأولياء الله ولكنه يحتاج لإعادة ذلك إلى مرشد ولا أحد له فى القاهرة . لذلك استحسن أن يبدأ بالإعلان ولعله أرخصها وأسهلها وأجداها . ونظر إلى الساقى العجوز وسأله :

ـ ألم تسمع عن سيد سيد الرحيمى ؟

ـ دكتور فى العمارة التالية .

ـ كلا ، أعنى الوجيه سيد سيد الرحيمى ؟

ردد الخواجا الاسم كأنه يلوكه فى ذاكرته ثم قال :

ـ لا أذكر زبونا بهذا الاسم .

ـ ألم يحدث لك أن بحثت عن شخص وأنت تجهل مقامه ؟

أجاب وهو يمد بصره إلى لا شىء :

ـ ابن مفقود من أيام الحرب !.

هز صابر رأسه معلنا عن أسفه ثم قال :

ـ ولكن الحرب انتهت وعرف مصير كل من اشترك فيها .

ـ أن أعتبره مفقودا خير من التسليم بموته !

وسأل الخواجا عن موقع جريدة أبو الهول فوصفه له بميدان التحرير . ذكره مبناها الأبيض المربع ، والفناء الذى تتوسطه فسقية بفيللا ثرى يونانى بالأزرايطة . ومضى نحو الباب الداخلى فرأى فتاة واقفة على عتبته وما لبثت أن

أشارت إليه . دهش صابر وأحد إليها بصره ولكن ساعيا مرق من جانبه متجها نحوها فأدرك أن الإشارة لم تكن له ، وسلمها الساعى شيئا ثم اختفى وراء الباب ، ووجد صابر نفسه أمامها ، رشيقة نحيلة ، لفت انتباهه فى وجهها تناقض محبوب جمع بين سمرة البشرة وزرقة العينين ، وتكوين الرأس والوجه غاية فى الأناقة والبداعة ، انبعث إليه منه شعور بالجذب والطمأنينة ، ثم استعاد نشوة نبيذ بتافرنا وهو يسمع عزف كمان . وحياها باسما ثم سألها عن قسم الإعلانات فقالت بصوت رقيق موحى بالثقة بالنفس :

— أنا ذاهبة إليه .

ولحظها منقبا عن مواضع للإثارة ولكن طرفه رد ممتلئا بالإعجاب وحده . ودخلا الإدارة فأشارت إلى رجل فى الصدر حملت لافتة مكتبه اسم « إحسان الطنطاوى » فحياه ، ثم دعاه الرجل إلى الجلوس على كرسى بين مكتبه ومكتب الفتاة التى جاءت به . وأبان صابر عن مقصده قائلا إنه يرغب فى الاهتداء إلى شخص يدعى سيد سيد الرحيمى ، فتساءل الرجل :

— دكتور القلب ؟

فأجاب بالنفى ، وتوقع أن يسمع منه مزيدا عن الشخصيات التى تحمل هذا الاسم ولكنه لم يفعل ، فقال :

— فى الحق أننى لا أعرف سوى اسمه ..

— أليس لديك فكرة عن عمله أو مكانه ؟

— كلا ألبتة ، كل ما أعلمه عنه أنه من الوجهاء ، محتمل أن تكون له مهنة تناسبه ولكنى لم أجد فى الدليل إلا الدكتور .

— قد يكون رقمه سريا ، وقد يكون من أعيان الريف ، وعلى أى حال فالإعلان أوجز سبيل إليه .

— ليكن إعلانا صغيرا بقدر الإمكان ، ويوميا لمدة أسبوع ، فى شكل دعوة للاتصال بى بفندق القاهرة سواء بالمراسلة أو بالتليفون .

— لا بد من ذكر اسمك فى الإعلان .

وفكر بسرعة وقلق ثم تمتم :

— صابر سيد .

ولم تتحقق مخاوفه فراح الرجل يخطط صورة للإعلان فلاحظ صابر أن الفتاة تتابع حديثه فلم يشك فى أن غرابة الإعلان هى التى أغرتها بذلك . ورأى ثمة مكاتب أخرى يجلس إليها موظفون وموظفات ، وعرف اسم الفتاة « إلهام » وهى تخاطب به ، وسمع إحسان الطنطاوى يسأله :

— ألا تشير إلى الغرض من إعلانك ؟

— كلا ..

ثم بعد هنيهة صمت :

— المؤسف أننى ظننت أن الذين يعرفونه فى القاهرة لا حصر لهم ولكننى لم أجد حتى الآن أحدا يعرفه .

— موضوعك غريب ، الاسم وحده !، وكيف تتأكد من هوية من يتقدم إليك مدعيا أنه سيد سيد الرحيمى ..؟

— لدى ما أستدل به على ذلك !

وقالت إلهام وقد غلبها حب الاستطلاع :

— فى المسألة سر عجيب ، كأسرار السينما !

فقال صابر باسما وهو يرحب فى أعماقه بتدخلها فى الحديث :

— أو أن يكشف بالسهولة التى تكشف بها أسرار السينما !

— على الأقل أنت تعلم أنه وجيه من الوجهاء فكيف عرفت ذلك ؟

سكت صابر مليا فقال إحسان الطنطاوى بلهجة جدية :

— هذا سؤال على مستوى التحقيق !

آه ، هذه الطفلة الكبيرة ، لعلها على استعداد للميل إليه ، وهى طاقة من عبير لطيف يدعو إلى استباحة الأسرار ، ليست كالنار التى صهرته بالفندق ، وقال :

ـــ يا آنسة إلهام أنا رجل غريب فى بلدكم ..

ـــ غريب ؟!..

ـــ أجل أنا فى الأصل من الإسكندرية وجئت القاهرة أمس فأنا غريب فى بلدكم ويهمنى جدا العثور على ذلك الرجل ، وإنى أستبشر خيرا بوجهك !

ابتسمت بشجاعة الفتاة العاملة ، ومرة أخرى تذكر نشوة النبيذ يتافرنا على أنغام الكمان .

٤

غادر الجريدة وموظفو الإدارة يتأهبون للانصراف . خطر له أن ينتظر قليلا ليلقى نظرة أخيرة على إلهام فوقف ضمن الواقفين تحت مظلة محطة للبص . إشعاعها اللطيف لم يزل ناشبا فى خياله وقد تخفف من عبء البحث إلى حين بوضع ثقته الكاملة فى الإعلان . وجرى هواء مائل للبرودة فى جو أبيض امتص لونه من سحاب ناصع البياض فأضفى على الدنيا حلما رائقا . ورأى إلهام وسط مجموعة من الشبان والشابات وقفوا أمام الجريدة متبادلين كلمات سريعة وابتسامات قبل الافتراق ، ثم عبرت الفتاة شارعا جانبيا للجريدة إلى محل صغير يدعى فتركوان واختفت داخله . تبعها بلا تردد ، ثم نظر إلى الداخل من خلال حاجز زجاجى فرآها جالسة إلى مائدة منفردة ، وتبين حقيقة المحل وهو مطعم للشطائر ومشرب للعصير والقهوة . دخل كأنما يقصد البوفيه ثم لمحها ـــ مصادفة ـــ فتهلل وجهه ومضى إلى مائدتها فى أقصى المحل والنادل يضع أمامها طبقا بالشطائر وكوبا من عصير البرتقال :

ـــ مصادفة جميلة جدا ، هل تسمحين لى بمشاطرتك المائدة ؟

قالت دون حماس ودون فتور :

ـــ تفضل ..

وطلب غداء كغدائها ، وزاد انتعاشا بإشعاعاتها التى ترفعه إلى مستوى غير مألوف فى علاقاته مع الناس . وشعر ببهجة غريبة :

ـــ لا شك أننى أبدو ثقيلا ولكن هكذا يبدو الغريب !

ـــ إنى أرحب بالغرباء .

ـــ شكرا ، أقصد أن لهفة الغريب على التعرف بالناس تنفرهم منه ؟

ـــ ليس فى مشاركة عابرة كهذه ما ينفر إطلاقا

وشكرها ثم تناول أولى شطائره .

ــ لعلك ذاهبة إلى السينما ؟

ــ كلا ، ولكننا نستأنف العمل فى الجريدة بعد ساعتين أو أكثر قليلا ، ولما كان بيتى فى أقصى الجيزة والمواصلات كما تعلم فإننى أفضل كثيرا أن أتناول طعامى هنا ..

ــ وهل تبقين هنا طوال الوقت ؟

ــ بعض الوقت وأتمشى على النيل البعض الآخر .

ورحا يتناولان طعامهما . واسترق ــ كلما وجد فرصة ــ النظر إلى فيها وهو يمضغ الطعام ، وإلى أصابع يديها ، متمليا ما أمكن زرقة العينين فى البشرة السمراء .

ــ ماذا ترين فى الإعلان ، هل يحقق المقصود منه ؟

ــ هو كذلك دائما .

قصد أن يوقظ حب استطلاعها ولكنها لم تتماد فى الكلام فقال :

ــ كم تهمنى النتيجة .

ــ ألا تعرف شيئا عن الرجل الذى تبحث عنه ؟

ــ عندى صورة وبعض معلومات طفيفة ..

ثم بعد لحظة تفكير :

ــ إنى موفد للبحث عنه من قبل والدى العجوز الذى كان يعرفه فى الزمن القديم ..

وقرأ فى عينيها الصافيتين تساؤلا فقال باسما :

ــ معاملات قديمة .

ــ مالية ؟

ــ لا تخلو من هذا الجانب الهام !

أن تتحقق أحلام لم تخطر بالبال هو ما يطمعك فى المستحيل ، وهذه الفتاة من

معدن يخلق النشوات .

— لم أشعر من قبل بمثل هذا الشعور !

فرفعت حاجبين مقوسين متباعدين فى تساؤل إنكارى فقال مفسرا :

— الغربة والأمل وصحبتك اللطيفة !

— فيما يتعلق بصحبتى أرجو ألا تكرر أقوالا أسمعها كثيرا ولم أجد لها معنى .

— تسمعينها فى الإدارة !

— مثلا .

— هل أنت سعيدة فى العمل ؟

— هه !

— هل تتركينه للبيت فى حينه ؟

— إنى أعتبره عملا لا محطة .

وفكرته الثابتة عن الجنس الآخر لا يمكن أن تتغير . هو فى نظره سلسلة من المخلوقات الوحشية الفاتنة الباحثة عن الغرام بلا مبدأ . أمه وقريناتها وفتيات الكنار الليلى وعطفة القرشى . وحتى نشوته الصاعدة إلى فوق لم تستطع أن تزعزع هذه الفكرة الثابتة ، ومع ذلك لم يشأ أن يجردها — فى خياله — من ثيابها وهى عادة مزمنة لم تفارقه . تجريدها من الثياب غير مجد لأن سحرها لا يستقر بموضع بالذات ، شائع كضوء القمر . وبه جانب مجهول تتعلق به الآمال كمستقر أبيه ، ولن يتحقق سروره بها كسروره بالأخريات أى بالبهلوانيات والألفاظ الجارحة والأفعال الشائنة والعبث الهمجى الوقح . هى شىء فريد . وفى ساعات قلائل كشفت عن طبيعة ثانية فيه وعن ذوق لم يذق به الأشياء من قبل .

— ومع ذلك فانظرى إلى عنايتك بأظافرك !

لاح فى وجهها الاحتجاج فى صورة طابع جدى وقالت :

— عنايتك بشعرك ليست دون ذلك !

— اعتبرى ملاحظتى طريقة غير مباشرة بالإعجاب .

ثم مستدركا بنبرة اعتذار وهو ينظر إلى اللوز الوردى المغروس فى البنان :

— عندما سأعود إلى الإسكندرية سأحمل منك أجمل ذكريات القاهرة .

— لم لم تعلن فى فرع الجريدة بالإسكندرية ؟

وهم بأن يدفع ثمن الغداء لها ولكنها أبت ذلك بإصرار فعدل عنه قائلاً :

— لو أردت أن تفعلى نفس الشىء لما رفضت .

فقالت ضاحكة :

— ولا هذه !.

وفى مرآة مثبتة فى الجدار الأيسر ضبطها وهى تتفحصه باهتمام فارتاح لذلك جدا . ليكن تأثيره كتأثيره فى الأخريات ! وتذكر الأسرار التى كشفها فى ماضيه القصير فابتسم . النوافذ والغابات والروائح الفطرية الفاتنة . وقامت لتذهب فصافحها مودعا ولكنه لم يتبعها رغم رغبته الشديدة فى ذلك . وأدرك أنه من المحتمل جدا أن يطلع نزلاء الفندق وصاحبه على الإعلان ، وأن علاقته بمن يبحث عنه لن تخفى على أحد . ولما أخبر خليل أبو النجا ومحمد الساوى عن المكالمة التليفونية المنتظرة قال العجوز :

— إذن أنت تبحث عن أبيك ؟!

فتورد وجهه وأحنى رأسه بالإيجاب .

— وكيف فقدته ؟

— فقدته كما فقدنى وها أنا قد قمت للبحث عنه .

— لا شك أنها قصة عجيبة !

وتضايق من الأسئلة المطوقة فقال :

— بل عادية جدا فأرجو استدعائى عند الطلب .

الشاب الذى يبحث عن أبيه ، هكذا سيطلقون عليه . وسيقولون ويتقولون . وهز كتفيه استهانة . ولزم الاستراحة أكثر الوقت وكلما رن

التليفون تعلق به بصره . ووقعت مكالمات غير مجدية فاتصل به سيد سيد الرحيمي الحلاق ببولاق وثان مدرس لغة عربية وثالث سائق ترام وقابلهم واحدا فواحدا ، كما قابل الدكتور من قبل ولكن لم يكن لأحد منهم علاقة بمن يبحث عنه . أين من يبحث عنه إذن ؟. ولم لم يتصل به كما فعل الآخرون ؟. إذا كان قد مات أفلم يترك ابنا أو قريبا ؟. وتذكر نقوده التى تتناقص باستمرار بجزع شديد . ومن حوله جلس كثير من النزلاء وتطايرت رائحة القهوة والسجائر ولكن أحدا لم يلق إليه بالا وكأن الإعلان لم يقرأه أحد وهو ما حمد الله عليه . ولكن ما عسى أن يصنع إذا تتابعت الأيام بلا نتيجة ؟. ماذا لو نفد المال ولم يظهر الأب ؟ أنت قواد أو بلطجى ؟. وعهد النبى دانيال الذى مضى كعبير طيب بددته الريح . عرف حب الأم وإغداقها المال بلا حساب وعرف مسرات الحياة بلا خوف أو ندم . وقالت الحياة جميلة وأنت زهرتها . وحتى عند الوعى بحقيقة الأمر خضعت لها باعتبارها مصدر كل شيء . وأنت ترقص فى ملهى الكنار الليلى صاح مخمور أكل الغيظ قلبه :

— يا بن بسيمة !.

فكانت معركة دامية وتناثر الزجاج ، ولا شيء يحمى السمعة السيئة إلا القبضة الحديدية . وما دامت بسيمة قد دفنت فلا أمل إلا إذا جاء الأب . وقال أحد القاعدين فى الاستراحة :

— القطن !، كل شيء يتوقف على القطن !

لم ؟. أهو رحيمى آخر ؟. وهو لولا الإعلان ما تصفح جريدة . حتى أنباء الذرة وغزو الفضاء جاءته عن طريق السكارى بملهى الكنار . وتساءل رجل آخر :

— وهذه الحروب التى تهدد العالم ألا تضمن لنا القطن ؟

— لن تكون كالحروب الماضية ..

— أجل أنها لن تبقى على شيء ..

ـــ القطن والفول والبهائم والخلق !

فتساءل الصوت الأول :

ـــ وأين الله خالق كل شيء وحافظه ؟

أين الله حقا ؟. هو عرف اسم الله ولكنه لم يشغل باله قط . ولم تشده إلى الدين علاقة تذكر . ولا شهد النبى دانيال ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش فى عصر ما قبل الدين . وقضى عليه بأن يمضى أجمل أوقات النهار بين ثرثارين أغلبهم من الريف ، ورائحة السجائر تختلط دائما برائحة البصل الأخضر . وإذا اشتدت مرارة الصبر تسلى بتخيل إلهام أو زوجة عم خليل أبو النجا . والهواء ضرورى جدا والنار لا غنى عنها . وسوف يصمت إلى الأبد دون أن ينبس لسانه بجواب يخرجه من حيرته . وإذا لم يلب أبوه النداء أفليس من الخير أن تنفجر الذرة لتهلك كل شيء ؟. الخوف والجوع والماضى الملوث ؟. ومرة حانت منه التفاتة إلى التليفون فرأى زوجة عم خليل بمجلسها الذى رآها به أول مرة . إذن عادت !. ودق قلبه باعثا حرارة جنونية فى كافة المراكز المتلهفة . الجسم الصارخ والنظرة المتآمرة مع الغرائز . ونسى التليفون والرحيمى وإلهام . وصعد إلى حجرته فى الدور الثالث وانتظر وراء الباب ، ثم سمع وقع أقدام صاعدة فخرج إلى الطرقة فالتقيا فى منتصفها . وتظاهر بالمفاجأة وقال :

ـــ حمدا لله على سلامتك !

فشكرته بابتسامة فقال :

ـــ تركت خلفك وحشة حقيقية !

فجادت بهزة شكر من شعرها الأسود وسارت فى طريقها المفضى إلى سلم الدور الرابع غير أنه همس بجرأة :

ـــ الإسكندرية !

تباطأت حتى وقفت تقريبا على بعد ياردة منه متسائلة :

ـــ الإسكندرية ؟

— أجل ، الإسكندرية .

قالت مقطبة :

— لا أفهم شيئا !

فقال بإصرار :

— إن كنت نسيت فأنا لا يمكن أن أنسى .

— أنت مجنون ؟.

قالتها بثبات زعزع ثقته فتساءل :

— ألست ..

ولكنها قاطعته وهى تمضى فى سبيلها :

— لعبة قديمة وسخيفة .

واستدرك قبل أن يوغل فى الابتعاد :

— على كل حال تقبلى إعجابى ..

واعتمد على الدرابزين حتى يتمالك أنفاسه ، حتى تبرد بعض الشىء النار الحامية . وتملكته لحظة جنونية فتمنى لو يهلك جميع من فى الفندق ليخلو لهما وحدهما . كما عصف به الجنون ليلة المطاردة التى اندلعت من ساحل الصيادين بالأنفوشى . وإذا بعلى سريقوس يهبط السلم وهو يدندن بموال صعيدى فجره إلى موقفه بإشارة وقال بمكر :

— سمعت صوتا يناديك لعله صوت الست !

— الست ؟.

— حرم عم خليل ؟.

— كلا . لعلها الحجرة ١٦ ، أنا قادم من عند الست وهى تدخل شقتها .

— ربما ، وستتأكد بنفسك ، ولكن هل تقيم الست فى شقة ؟

— شقة عم خليل فوق السطح .

— وأين كانت طوال الأيام الماضية ؟.

ـــ عند أمها ، إنها تزورها كل شهر .

ورمق ظهر عم خليل ، وهو نازل ـــ باحتقار ومقت ، وكره فكرة العودة إلى مجلسه بالاستراحة فغادر الفندق . تمتع بشمس ترسل أشعتها من سماء صافية ، فى جو يتيه ببرودة لطيفة محببة ورغب فى المشى بنهم فمشى بلا هدف وهو يأسف على أنه لا يجد فراغ البال لمشاهدة القاهرة . وتذكر أن مدة الإعلان ستنتهى بعد يوم فمضى إلى جريدة أبو الهول ، والحق أنه كان يرصد ميعاد الذهاب إلى الجريدة ليرى إلهام من جديد . وجد إحسان الطنطاوى مشغولا بزبون فصافح إلهام ثم جلس على الكرسى بين المكتبين . توقفت عن دق الآلة الكاتبة وسألته :

ـــ لا جديد ؟.

أجاب وهو يفيق نهائيا من لفحة الجحيم :

ـــ مكالمات ومقابلات غير مجدية ..

ـــ الصبر طيب .

تابع أصابعها فوق أحرف الآلة بارتياح خفف عنه متاعبه ، وبدا عنقها طويلا وهى خالعة جاكتتها وفى صفحته اليسرى لاح خال . ورغم سعادته برؤيتها فاجأه حزن طارئ لا تفسير له . وتبين أن إحسان الطنطاوى ينجز إعلان وفاة فحاصرته ذكريات الليلة الأخيرة لأمه . ووضحت له تعاسة مركزه فى الوجود إذ يعتمد كلية على شبيه بالسراب . وحانت فى تلك اللحظة التفاتة سريعة من إلهام إليه فانشرح صدره وتجاهل همومه . وفرغ إحسان الطنطاوى من إعلان الوفاة فحياه قائلا بشىء من الخبث :

ـــ تجديد ؟

ضحك وهو يحنى رأسه فى تسليم ، ثم سأله :

ـــ جاءنى كثيرون أما هو فلا حياة لمن تنادى ، ما تفسير ذلك ؟

ـــ الإعلان من هذا النوع يتطلب المثابرة .

ـــ ولكن المفروض أن الرجل معروف على أوسع نطاق !

ـــ أنت لا تعرف سوى اسمه ، وما عدا ذلك بالسماع عرفته ولا يمكن أن تقطع فى ذلك برأى حاسم ، وأنا رجل عشت فى مختلف الأوساط بالقاهرة زهاء ثلاثين عاما ولم أسمع عنه ..

ـــ ولكنى أصدق تماما من أرسلنى للبحث عنه .

ـــ إذن ففى المسألة سر ستكشفه لك الأيام .

تفكر قليلا ثم قال :

ـــ عندى له صورة قديمة أخذت له منذ ثلاثين عاما .

ـــ نضيفها إذا شئت إلى الإعلان فتضاعف من فائدته .

وأراه الصورة فتفحصها ثم تمتم بإعجاب :

ـــ يا له من شخصية !

وانتظر صابر فى إشفاق أن يلاحظ الرجل وجوه الشبه بينه وبين صاحب الصورة ولكنه لم يلاحظ شيئا ، ومضى يتحدث عن الإعلان الجديد وتكاليفه . ووافق صابر على الاقتراح مرغما . ثم غادر الجريدة وهو يفكر فى نقوده التى تتناقص يوما بعد يوم ، والتى سيضحى بعد نفادها معدما كمتسول . وذهب إلى فتركوان فجلس إلى مائدة إلهام ينتظر . ولما رأته ترددت فى شيء من الارتباك ولكنه أزال ترددها بوقوفه مرحبا ، وبمجرد أن جلست طلب الغداء من الشطائر والعصير ، وتصرف بلا كلفة ليبدد دهشة اللقاء . وإذا بها تقول :

ـــ رأيت الصورة !

ـــ حقا ؟

ـــ أنت تشبهه !

ـــ تعنين الرجل ؟

هزت رأسها موافقة وهي ترمقه بارتياب فلم يجد بدا من اختلاق كذبة جديدة فقال :

ـــ إنه أخى ..

ـــ أخوك !، معقول جدا ولكن لماذا لم تقل ذلك من الأول ؟

فابتسم ولم يجب فسألته :

ـــ ومن الفتاة الجميلة !

ـــ كانت زوجته رحمها الله ..

ـــ آه ، وهل .. أعنى أخاك .. كيف ..

ـــ اختفى قبل مولدى . خلاف ثم اختفاء كما يقع أحيانا ، وأخيرا بعد ثلاثين عاما أرسلنى أبى للبحث عنه ..

ـــ حقا إنها قصة مثيرة ، ولكن لم تعتقد أنه شخصية معروفة ؟

ـــ هكذا قال لى أبى ، ولعله مجرد استنتاج ، ولكن العجيب أن إحسان الطنطاوى لم يلاحظ الشبه بيننا عندما أريته الصورة فهل حدثك عن ذلك بعد ذهابى ؟.

ـــ كلا ، رغم وضوح الشبه ، ولكن رأس الأستاذ إحسان مشغول بالحسابات ..

وجاءت أطباق الشطائر فبدأ الغداء . وعند ذلك قال معتذرا :

ـــ آسف على تطفلى ، ولكنى وحيد فى المدينة والفراغ يوشك أن يقتلنى ..

فقبلت عذره بابتسامة وسألته :

ـــ كيف تمضى وقتك ؟

ـــ فى الانتظار .

ـــ هذا ممل جدا ، ثم إن البحث غير الانتظار .

ـــ ولكنه لا يخلو من فترات انتظار .

ـــ وماذا تفعل فى أوقات الانتظار ؟

ـــ لا شىء !

ـــ غير معقول .

فقال برجاء :

— من هنا تلمسين مدى حاجتى إلى صديق .

ووشى تورد وجنتيها بتشربها الإشارة فتشجع قائلا :

— وأنت الصديق !

شربت قليلا من الماء ثم واصلت الطعام فتساءل :

— ما رأيك ؟

— قد تكون مغاليا فى ظنك .

— هذه الشئون تعرف بالقلب .

— يمكن أن نتقابل كلما جئت لتجديد الإعلان .

فضحك قائلا :

— إذن فأنت تريديننى أن أواصل الإعلان إلى الأبد ؟

— ما دام يهمك العثور عليه .

— هو ذلك ، ولكن إذا أثبت الإعلان عقمه فسوف أستأنف البحث .

ورفعت كوب البرتقال فرفع كوبه قائلا :

— صحتك !.

— أنت تشجعنى على الحذر منك !

وشربا وهما يتبادلان الابتسام . وقال إنه ما كان يطاردها لو كانت مكان الأخرى عند ساحل الصيادين . وقال إنها عزيزة جدا وهو يحبها . « ومن الفتاة الجميلة ؟ » عجيب موقع السؤال من أذنك . لكونها لم ترها فى الليلة الأخيرة . ولم تر كفنها النحيل كلا شىء .

وقال بدهاء :

— أشكرك جدا !

وجدت فى الشكر فخا ولكنها لم تبد احتجاجا . وحل صمت سعيد فانغرست بذور التفاهم . وطريق البحث شاق ومحرق وطويل فيحتاج إلى استراحة من الظل الظليل .

٥

تعب البصر من تفحص الوجوه . وشوارع القاهرة الزاخرة بتيارات البشر والسيارات كأمواج البحر فى الأيام العاصفة . وسحب الخريف الواردة من الإسكندرية يتبدد أكثرها قبل الوصول إلى سماء القاهرة ولكن ذكريات الإسكندرية مشتعلة أبدا فى القلب المنتظر . ولم تعد استراحة الفندق مرهقة مد عادت المرأة من رحلتها ولكنها فى الحق معذبة . وليس نادرا أن ترى بمجلسها إلى جانب زوجها وأنت ترصدها من أقصى الاستراحة ، ولها نظرة دسمة موحية تنفجر همساتها كالشرر . وكم من محاولات فاشلة بذلت للانفراد بها فى طرقات السلم ، وقد تدرى بها من بعد فتفسدها عليك ثم تجىء إلى مجلسها ساخرة . وهى لا ترد ابتسامة وتتجاهل أى إشارة . ومن خلال حيرة ضبابية تلتمع بوارق إغراء لاسلكية . وكلما جن جنون الإثارة تمنى الهلاك لجميع من بالفندق لينقض عليها فى الخلاء الصامت . فى هذه الحالات الجنونية تنزوى إلهام فى ركن كالندم عند طغيان الجريمة . ويفيق أحيانا على روائح السجائر والبصل وأحاديث القطن والقمح والحرب المدمرة . لعلهم مثلك يجرون وراء أمل شبيه بما يعدك به أبوك المفتقد . ومن صميم ذهوله استيقظ مرة على صوت محمد الساوى وهو يهتف :

ـــ صابر أفندى .. تليفون ..

وثب فى انتباه حاد واندفع نحو المكتب . هل أخيرا ..؟.

وتأهبت جميع حواسه لسماع الكلمة الموعودة .

ـــ آلو ؟!

ـــ حضرتك صاحب الإعلان ؟

أجاب وهو يحس بدبيب دموع الراحة فى أقصى مسالك عينيه :

ـــ نعم من حضرتك ؟

— أنا الرجل الذى تطلب فيما أعتقد ..

— سيد سيد الرحيمى ؟

— نعم ..

— هل الصورة صورتك ؟

— نعم ..

ازدرد ريقه بصعوبة ثم قال بصوت متهدج :

— كيف أقابلك ؟، أى مكان تحدده ؟

— ولكن لماذا تريدنى ؟

— فلنؤجل ذلك للمقابلة ..

— أفضل أن تعطينى فكرة قبل المقابلة ..

— لكن ذلك متعذر بالتليفون ولا ضرر من المقابلة ألبتة ..

— هل يمكن أن أعرف من أنت ؟

— اسمى منشور فى الإعلان ..

— أعنى مهنتك أو عملك ؟.

— من الأعيان ..

— ولم تريدنى ؟

— ستعرف ذلك فى الوقت الذى تحدده ، وكله خير ..

وسكت الصوت قليلا ثم قال :

— تعال الآن .. إليك العنوان : فيللا ١٥ شارع التلبانة بشبرا .

سأل عم خليل وعم محمد عن العنوان ولكنهما لم يعرفاه وقال له الساوى :

— أسماء الشوارع تتغير فى كل ساعة ، اذهب إلى شبرا أولا ثم اسأل هناك عن الشارع ..

وذهب إلى شبرا ، وحرق ساعات النهار فى البحث والسؤال مندفعا بإصرار محموم ولكنه لم يجد أحدا قد سمع عن الشارع . ولما أعياه التخبط ذهب إلى قسم

شبرا وهناك تأكد من عدم وجود شارع بهذا الاسم . تداعى إلى فراغ اليأس . هل أخطأ السمع ؟، هل عبث به عابث ؟.

ورجع إلى الفندق وصوت الشحاذ يعلو بالمديح فكره كل شيء إلى حد المرض . ولما رأى المرأة فى مجلسها المألوف امتزجت كراهيته برغبة عنيفة دموية . وأخبره الساوى أن شخصا سأل عنه فى التليفون أكثر من مرة ، ورجح أنه نفس الشخص الذى طلبه أول النهار ، فعاوده الأمل وقال إنه أخطأ السمع بلا شك وأن الرجل استبطأه فكرر السؤال عنه . وتمتم عم خليل :

— وفقت إن شاء الله ؟

فأجاب متظاهرا بالمرح :

— فى الطريق ..

وخطف من المرأة نظرة ثم مضى إلى مجلسه بالاستراحة منهوك القوى ، وتسللت إلى المكان كآبة مساء الخريف فأضيئت الأنوار . واختفت المرأة فازدادت الكآبة كثافة . لا شك أن الرجل سيعيد المكالمة . وإذا بالساوى يلوح له بالسماعة فهرع إليه :

— آلو ..

— صابر ؟.. فات النهار ولم تأت ؟

— لكنى لم أجد الشارع ..

— هل بحثت عنه حقا ؟

— طول النهار تقريبا .. التلبانة رقم ١٥ بشبرا ..

— حقيقة إنك حمار ..

وضحك ضحكة طويلة قبل أن يغلق السكة . أعاد السماعة وغادر الفندق . انتفض طوال الوقت من الغضب . عابث كلب وغد . هكذا يرد إلى نقطة البدء ودون بادرة أمل . وذهب إلى بقالة الحرية بكلوت بك فاشترى زجاجة كونياك وأعد له الرجل عشاء سمك . يوم عابث ويأس فلا أقل من أن يختم

بسهرة مستهترة . وشرب بسرعة ودون أدنى اهتمام بالنقود التى تنفق . كأيام النبى دانيال . عندما قالت له الدنيا جميلة وأنت زهرتها . وهواء الإسكندرية المعربد الملىء بالفتن . أما هذه المدينة فلا يلقى فيها إلا العناء . وكل ساعة تمر تقربه من النهاية المخيفة . وماذا بعد الانتظار والجرى وراء المجهول فى الظلام ؟. وإذا خطر له أن يمتهن مهنة أمه فسيكون هزءة رجال الليل بالإسكندرية . واللكمة التى كانت تؤدبهم تنقلب راحة مبسوطة لخدمتهم . الجريمة دون ذلك يا أوغاد . لعل عابث التليفون واحد منكم فالويل لكم . وامرأة الفندق متعة يرغب فيها منذ عهد الأنفوشى وإلهام عبير طيب ولكن ما قيمة أى شىء قبل العثور على الأب ؟. وتيسم بالنشوة رغم رائحة السمك . ومضى يسير تحت البواكى المقطبة . وحن إلى الرقص فى الكنار الليلى ، والشوارع السنجابية المغسولة بماء المطر . والهواء المنبعث من الهدير الذى يغطى الأجساد بغلالة سمراء . ومس دمه حنون حيوانى كليلة المطاردة . وأمه كانت تدخن النارجيلة وتحكم الرجال . وعندما تجلس لمناقشته تجلس كملكة . وقالت له افعل ما تشاء ولكن لا تسرف فلا عدو لنا إلا الفقر . وقالت له اعشق كل يوم امرأة ولكن لا تجعل لإحداهن من سلطان عليك . وهام على وجهه فى الليل كالثور . وفى ملهى الكنار تعبث الأيدى تحت الموائد عبثا فاضحا . ولكن أين سيد سيد الرحيمى ؟. وهتف بصوته الملىء « يا رحيمى » ثم راح يدندن بالأغنية الإسكندرانية « ما تبطل الشقاوة وتعال عندنا » . وبحكم الكونياك والسمك والهم جرد الزوجة من ثيابها وعبث بها بوحشية . ورجع إلى الفندق عند منتصف الليل فوجده غارقا فى النوم . ودخن سيجارة فى حجرته الأثرية ثم نام . واستيقظ . انتبه إلى أنه استيقظ على صوت وفتح عينيه . ثمة ظلمة عميقة والنافذة لم تفضح بأى نور . ثم يسمع نقرا خفيفا متقطعا على الباب . جلس وهو يرهف السمع فعاوده النقر الخفيف الحذر . مد يده إلى مفتاح الكهرباء فأضاء المصباح العارى ثم مضى إلى الباب وفتحه بخفة . وما إن تحركت الضلفة عن فرجة حتى مرق منها شخص ثم رد الباب وراءه

بسرعة . اشتعل يقظة وهو يحملق فيها ثم غمغم بذهول نشوان :

ــ أنت !؟

نظرت حولها بحركة تمثيلية مازحة كأنما فوجئت بخطأ لم يجر على البال وتمتمت :

ــ أين أنا ؟.. أخطأت المكان ؟..

وحبكت الروب حول صدرها نصف العارى وعضت على شفتيها لتئد ابتسامة فجذبها إلى صدره ، إلى بيجامته المبعثرة وشعره المنكوش ، وضمها إليه بقوة الصبر المعذب الطويل :

ــ أما أنا فإنى أنتظر مائة عام !.

واتجها ملتصقين نحو السرير ، وفى الطريق أطفأ النور .

ــ ألم تصادفك متاعب ؟

ــ كلا ..

هى أدرى بأمرها وهو لا يهمه شىء . ورفع شفتيه عن ثغرها لحظة ليسألها :

ــ لم أعرف اسمك ؟

ــ كريمة ..

فهمس فى أذنها من خلال أنفاس حارة :

ــ جدا !.

إذن فأنت من النوع المقتحم !.. لم أفطن إلى طبعك بسبب دهائك الجميل . وفى الوقت المناسب لا يردك شىء عما تريدين . ما أحلى الحب فى الظلام . وتحقق حلم الجنون فى دوامة من الذهول . وانصهر التأمل فى وقدة طاغية ، وسبحت موجة من النار فى الظلمة الدامسة . واستحكمت لحظات النسيان المطلق فالتهمت الماضى والحاضر والمستقبل .

ــ قلت إنك أكثر من كريمة !

ــ وأنت ؟!

وتسللت إلى أنفه رائحة خفيفة ولكنها مثيرة جمة الذكريات . وتوقع أن يسمع هدير البحر . حتى تواصل تردد الأنفاس كصدى رنين الأوتار بعد توقف العزف . ورأى الظلمة مرة أخرى . سواء فتح عينيه استطلاعا أم أغمضهما شبعا وارتياحا . وقال بصوت منغوم :

ـــ فى الدنيا أشياء تستحق عليها التهنئة حقا .

ـــ سيجارة من فضلك .

أشعل لها سيجارة وهو يقول :

ـــ ظننتك غير مدخنة ..

ـــ نادرا جدا ما أدخن !

وترك العود يعكس على جسدها ضوءه ، ولكنها نفخته فساد الظلام وانتشرت رائحة فسفورية خفيفة .

ـــ لم ألمس فيك طوال الأيام الماضية إلا المعاندة !

ـــ ولا المعاندة !، أنا لا أبدى شيئا !

ـــ أما أنا فصارحتك بكل شيء من أول يوم !

فضحكت قائلة :

ـــ عندما رأيتك قادما منذ عشرة أيام قلت لنفسى هذا هو ..

فهتف بانتصار :

ـــ الإسكندرية ؟!

ـــ كلا ، لا أقصد هذا ولكننى قلت هذا هو رجلى !

ـــ والإسكندرية ؟

ـــ أنت تختلق حكايات لا أصل لها .

ـــ حقا ؟

ـــ ولم أكذب عليك ؟.

ـــ عجيب أن يخلق مثلك مرتين !

ــ يجب ألا يسرقنا الوقت حتى لا تحدث حوادث !

ــ كيف أمكنك المجيء ؟

ــ أخذ المنوم فنام ، متاعبه كلها تتجمع عند النوم .

ــ ولكنك خيبت ظنى ، طالما قلت لنفسى إذا كانت هى فتاة الإسكندرية، فقد يعنى هذا أننى سأوفق فى البحث ..

ــ تعنى أباك ؟

ــ نعم ..

ــ ما حكايتك بالضبط ؟

ــ نشأت وأنا أظن أبى ميتا ثم أخبرنى ثقة بأنه حى ، هذه هى الحكاية باختصار .

ــ لعلك تبحث عن المال ؟

ــ ولكنه ليس كل شيء ، الذى يهمنى الآن أكثر من سواه أن أسمع منك أنك ستجيئين كل ليلة ؟

ــ كلما وجدت فرصة .

فقبلها قبلة طويلة هادئة فقالت بشقاوة :

ــ كلما راق لى ذلك !

فتشمم عبير صدرها بامتنان وقال بتوسل :

ــ لا تتكرى الإسكندرية !

ــ أنت مجنون بخيال ، واحذر أن تكون كذلك فى حكاية أبيك ؟

فقال بوجوم :

ــ أود لو كان ذلك كذلك لأريح نفسى ..

ــ همك أكبر مما ظننت !

ــ نعم ، ولكن همى الجديد ، بعد هذه الليلة ، أن أبقى هنا أكبر مدة ممكنة .

— وماذا يمنعك من ذلك ؟

بعد تفكير :

— إذا نفدت نقودى قبل العثور على أبى وجب على الرجوع إلى الإسكندرية .

— ومتى تعود إلينا فى تلك الحال ؟

— على أن أبحث عن عمل هناك .

فشبكت أصابع يدها فى أصابع يده وقالت :

— لا ..

ارتفع انتباهه إلى القمة فعادت تسأله :

— ولم لا تبحث عنه هنا ؟

— غير ممكن !

— كلك ألغاز ، ولكنى أخبرك بأن النقود ليست مشكلة .

خفق قلبه وقال مقتبسا من جو الكنار الليلى :

— الظاهر أنك مليونيرة .

فقال فى مباهاة :

— هذا الفندق .. والمال .. كل شىء باسمى أنا !

— والرجل موظف عندك ؟

— كلا هو المتصرف فى ماله طالما أنه على قيد الحياة .

— على أى حال هذا لا يعنى شيئا بالنسبة لى !

وخجل من مكره الساذج رغم الظلام فقالت :

— لندع الله أن يهديك إلى أبيك فهو حل أيسر من غيره .

— هذا ضرورى ولو أننى لن أهتم منذ الساعة بشىء سوى انتظارك .

وأحاطها بذراعه ولكنها تزحزحت إلى حافة السرير قائلة :

— اقترب الفجر ووجب الذهاب ..

ورجع إلى سريره بعد أن أغلق الباب وعناقها لاصق به كالعبير ، واستلقى فى ارتياح عميق فسرعان ما زحف عليه التخدير . وقال إنه يشعر لأول مرة بأنه يحتمل أن يستغنى عن أبيه ، ولكن عندما لوح له الساوى بسماعة التليفون هرع إليه كالريح ثم هتف بجزع :

ــ ألو ؟

وإذا بصوت جاد يسأل :

ــ صابر سيد صاحب الإعلان ؟

ــ نعم أنا هو !

ــ أنا سيد سيد الرحيمى فماذا تريد ؟

ــ لابد من مقابلتك ..

ــ أنا منتظرك بمحل فتركوان ، هل تعرفه ؟

ــ نعم سأكون عندك فى خلال دقائق .

وأجال عينيه فى المحل حتى رأى رجلا جالسا إلى مائدة إلهام لم يشك لحظة فى أنه صاحب الصورة ، بل إنه لم يكد يتغير فى مدى الثلاثين عاما ، عدا انتشار المشيب فى سوالفه وانطباع تجاعيد غير ملحوظة إلا عند التدقيق حول فيه وتحت عينيه . نظر صوبه فى رهبة حقيقية إذ وجده أضخم وأفخم من أى خيال ، واتجه نحوه حتى حدس الرجل شخصيته فنهض لاستقباله فتصافحا وصابر لا يحول عنه عينيه .

ــ صابر أفندى ؟

ــ نعم ، وسيادتك صاحب الصورة بلا ريب .

وجلسا والرجل يقول :

ــ أنت شاب فى عز الشباب ، ويخيل إلى أننى رأيتك قبل الآن ، أين يا ترى ؟

ــ أنا فى الأصل من الإسكندرية ، أنزل الآن فى فندق القاهرة بشارع

الفسقية ، وأمشى كثيرا فى كلوت بك وميدان المحطة ، وقد جلست أكثر من مرة إلى هذه المائدة !

ـــ لا شك أنى رأيتك فى أحد هذه الأماكن ، فأنا أزور الإسكندرية من آن لآن وأمر كل يوم بميدان المحطة ، وليس نادرا أن أجلس فى هذا المحل !

فهتف صابر :

ـــ هذا أعجب ما سمعت ، ولو أننى لا أذكر أنى رأيتك من قبل إلا بالتخيل ، ولكن متى اطلعت على الإعلان ؟

ـــ منذ أول يوم !

ـــ حقا ! ولكنك لم تتصل بى إلا اليوم !

ـــ بلى ، ذلك أن الإعلان يدل على أنك لم تستطع الاهتداء إلى بالطريق العادى على حين أننى رجل معروف جدا ولا أيسر من الاهتداء إلى بيتى أو مكان عملى ، لذلك تجاهلت نداءك . ولما لمست إلحاحك لم أر بدا من الاتصال بك .

ـــ هذا عجيب حقا فإنى لم أصادف أحدا يعرفك ، ولا رقم لك فى الدليل .

ـــ لندع الآن ذلك وخبرنى عما تريد ؟

ـــ الحق أنى أريدك أنت ، ولكن ألا تلاحظ شيئا يا سيدى ؟

ونظر فى وجهه متوقعا أن يلاحظ الشبه بينه وبين الصورة ولكنه خيب ظنه ، فقال بجزع :

ـــ انظر إلى وجهى !

ـــ ماذا فى وجهك ؟

وهنا سمع صوتا يهمس :

ـــ أستاذ صابر !

التفت نحو الصوت فرأى إلهام واقفة . نهض فصافحها ثم هم بتقديمها إلى أبيه ، وإذا بالرجل يمد لها يده قائلا :

ـــ إلهام !، كيف حالك ؟

وقبلت الفتاة يده باحترام فهتف صابر :

ـــ إذن أنت تعرفينه !

فسأله الرجل دون اكتراث بدهشته :

ـــ خبرنى متى عرفت ابنتى .

فصاح صابر .

ـــ ابنتك !، رباه !

وبسرعة غير متوقعة غادرت إلهام المكان قبل أن يستطيع منعها ، وقال الرحيمى بهدوئه الذى لزمه طيلة الوقت :

ـــ كثيرا ما أسمع كلاما لا معنى له ، ومنه ما يمسنى شخصيا ولكنى لا أكترث لذلك ألبتة ، خبرنى الآن عما تريد ؟

جلس صابر فى حال من الانحلال التام ، وبحركة آلية قدم له الصورة الجامعة بينه وبين أمه التى رأى نصفها فى الإعلان ، ووثيقة زواجه بأمه ، وشهادة تحقيق الشخصية ، نظر الرجل فيها واحدة بعد أخرى وهو هادئ كتمثال . وبكل برود وضع كلا منها فوق الأخرى ، وبحركة سريعة حاسمة راح يمزقها إربا . صرخ صابر وانقض عليه يريد أن يمنعه ولكن بعد فوات الأوان . أمسك بثنية الجاكتة وصاح به :

ـــ أنت تمحو وجودى محوا فالويل لك .

فقال الرجل دون أن يخرج عن هدوئه المثير :

ـــ ابعد عنى ، لا ترنى وجهك ، دجال كأمك ، ولا شأن لى بك ، اذهب ..

ودفعه عنه فتقهقر حتى اصطدم رأسه بحافة البوفيه .

واستيقظ ، فتح عينيه وهو يتنفس بصعوبة فرأى الحجره الأثرية على ضوء النهار الذى ينضح به الشيش ، وأدرك أنه عار تماما تحت الغطاء فتذكر الليلة المنطوية بجميع ملابساتها ، وتنهد بارتياح ، ولكنه شعر ـــ لشدة انفعاله بالحلم ـــ بإعياء وحزن .

٦

وتعددت أحلامه لدرجة أثارت انزعاجه وامتعاضه ، ويستيقظ فيلازمه شعور بالتعب والكدر وأحيانا يخيل إليه أن الصمت يخنق العالم ، وكثيرا ما يذكره ذلك الصمت بالصمت المصاحب لارتفاع الموجة وتجمعها قبل أن تنفجر مرعدة مزبدة ، وفى الحلم يطل عليه وجه أبيه بالرغم من أن العشق أصبح المحور الذى تدور حوله حياته ، العشق الذائب فى أحضان الظلمة . وهو يكره الأحلام لأنها ترجعه إلى فترة ماضية من حياته ألح فيها عليه الصرع حتى أوشك أن يهلكه . وطاردته ذكريات المرض طويلا بعد شفائه منه فكان الصرع من أسباب اندفاعه فى طريق اليأس والقوة كسمعة أمه سواء بسواء . أما الصراع الذى يخوضه فى الأحلام فيورثه عقب اليقظة إنهاكا وحزنا فيمتلئ بأفكار الفناء ، وإذا ترامى إليه الأذان من الجامع القريب وهو على تلك الحال تضاعف حزنه .

وعندما دخل إدارة الإعلان بجريدة أبو الهول تطلع إليه نفر من الموظفين فى فضول ولكن تطلع إلهام إليه أفعمه بنشوة أحلى من بسمة الفجر الأولى فوق البحر الأبيض . وصافحها بحرارة كما ينبغى لصديق فسألته :

ــ أما من جديد ؟

فأجاب وهو يملأ من وجهها عينيه :

ــ جئت لأجدد الإعلان ولو أننى ترددت طويلا هذه المرة !

ــ هل تفكر فى وسائل أخرى .

ابتسم ولكنه لم يخبرها بأن اهتمامه بالعثور على الرحيمى لم يعد فى مكانته الأولى . وقال له الأستاذ إحسان الطنطاوى :

ــ عندنا لك مفاجأة .

فجلس وهو يتساءل فقال الرجل :

— سألت عليك امرأة بالتليفون ..

— امرأة ؟!

— سألت عن سر الإعلان .

— حقا !، ومن هى ؟

— لم تكشف لنا عن هويتها ولم تشف لها غليلا بطبيعة الحال .

— أليس من المحتمل أن تكون من طرف الرحيمى ؟

فقالت إلهام :

— قد وقد ؟

— وما قد الأخرى ؟

فقال الطنطاوى ضاحكا :

— قد تكون من طرفك أنت !

استعذب هذا التحقيق الذى أخذ بمجامع قلبه وقال :

— أو عابثة من العابثين ، لقد لعب معى أحدهم لعبة سخيفة .

ترى هل المرأة من طرف الرحيمى ؟. زوجته أو أرملته ؟. أو لعلها كريمة دفعت إلى ذلك بحب الاستطلاع ، إنها امرأة مجربة لا تصدق شيئا بسهولة . هى داهية بقدر ما هى فتاكة بقدر ما هى لذة طاغية . وجلس إلى المائدة بفتركوان فتذكر لحظات الحلم العجيب . وجاءت إلهام فاتخذت مجلسها ، وطلب الغداء ، وتبادلا ابتساما ودودا ، وقالت :

— لست على حماسك الأول للإعلان وهذا أحسن .

أنت لا تدرين شيئا عما خفض درجة حماسى !.

— أحسن ؟

— نعلم فهذا البحث يجب أن يترك للزمن الطويل .

— ولكن ألا تسمحين بأن أدفع ثمن الغداء ولو مرة ؟

— أنت الضيف لا أنا ؟

ـــ ما ألطفك يا آنسة إلهام ، ألا يمكن أن أذكر الأسم مجردا ؟

ـــ بكل سرور .

ـــ ما ألطفك !

ومضيا يتناولان الطعام فى ارتياح وسرور . وقرأ فى عينيها الزرقاوين اهتماما بموضوع ما لن يلبث أن يترجم إلى كلمات فانتظر الكلام بشغف مؤملا أن يكشف فيه عن حقيقة مشاعرها . وتذكر ظلمة النصف الثانى من الليل وذوبانه فى فتنة رائعة فعجب لانقسامه الحاد بين المرأتين . وقالت :

ـــ يخيل إلى أنك فى إجازة خاصة لإنجاز هذه المهمة ؟

تجس النبض للتعرف عليه ، وساوره قلق ولكنه قال :

ـــ لست موظفا بأى معنى لهذه الكلمة ، أنا من الأعيان !

ـــ تزرع أرضك ؟

ـــ أبى من ذوى الأملاك .

واضح أنها تتستر على شعور بعدم الارتياح . قال :

ـــ وأنا أدير أملاكه العقارية ، وهو عمل أثقل من أى وظيفة !

ثانى كذبة يكذبها عليها وهو كاره رغم أنه لم يكذب بعد على المرأة الأخرى .

ـــ المهم أنك لا تعيش فى فراغ فهو عدو البشر .

ـــ هو كذلك ، عانيته أسبوعين ، ولكن كيف عرفت ذلك ؟

ـــ ليس عسيرا على أن أتصوره ثم إنى قرأت عنه .

ـــ التجربة لا تكون حقيقية إلا حين أمارسها .

ـــ رأى وجيه .

ـــ فى سنك هذه لا يتاح لك معرفة الحقائق بطريقتى إلا فيما ندر ؟

ـــ إن كنت تتصورنى طفلة فأقلع عن تصورك !.

يا ربى كم أحبها وكم يسعدنى الوجود بقربها . وتقدم خطوة جديدة فقال :

ـــ أنت تعرفين كل شىء عنى تقريبا فهل تعرفيننى بك ؟

ـــ وماذا أعرف عنك ؟

ـــ اسمى ، عملى ، أبى ، مهمتى فى القاهرة ، إعجابى بك !

وهى تضحك ضحكة صامتة :

ـــ لا تخلط الحقائق بالخيال !

وقال لنفسه بل هو الحقيقة الوحيدة التى عرفها . وتجهم الجو فى المحل كأن نوافذه أغلقت . وغاب إشراق الظهيرة السابح وراء الحاجز الزجاجى فى الخارج فتخيلا جسامة السحابة التى أخفت الشمس .

وقال مستدرجا إياها إلى الاعتراف :

ـــ وبدورى فأنا أعرف اسمك ووظيفتك .

ـــ وماذا تريد أن تعرف أكثر ؟

ـــ ما تجودين به ، متى توظفت ؟

ـــ منذ ثلاثة أعوام ، وهو تاريخ تخرجى فى التجارة الثانوية ، ولكننى مستمرة فى التعلم .

وقلق . لا تسألى عن مؤهلاتى فالكذب عنها لا يجدى ، ولكنك لبقة مهذبة .

ـــ وأسرتك بالجيزة ، هه ؟

ـــ أعيش مع أمى فقط ، أسرتنا من قليوب ، وخالى بمصر الجديدة ، المهم أن فى أسرتنا مفقودا مهما كما فى أسرتك .

فقال بدهشة :

ـــ من هو ؟

أجابت وهى تكتم ضحكة :

ـــ أبى !

اتسعت عيناه الجميلتان فى ذهول . وتذكر الحلم العجيب . وقصه عليها محورا فيه بما يتمشى مع كذبته الأولى . الآباء المفقودون أكثر مما تتصور . ولعلهما يبحثان عن أب واحد .

ـــ لكن كيف فقد أبوك ؟

ـــ لا كأخيك ألا ترى أننى أبيح أسرار أسرتى بغير حساب ؟

فرمقها بعتاب ما لبث أن اختفى وراء نظرة متألقة بحب الاستطلاع فى ذروته ، فقالت :

ـــ الحقيقة أن أبى انفصل عن أمى وأنا فى المهد .

ـــ هرب ؟

ضحكت ضحكة عالية فتنبه إلى هفونه قائلا :

ـــ أعنى اختفى ؟

ـــ إنه محام معروف فى أسيوط ولعلك سمعت عنه فهو الأستاذ عمرو زايد .

زال عنه توتر التوقع فقال فى دعابة :

ـــ ظننته سيد سيد الرحيمى !

فتساءلت ضاحكة :

ـــ أيسعدك أن تكون عمى ؟

فأجاب بقوة :

ـــ كلا .

تورد وجهها الأسمر وهى تقول :

ـــ صممت أمى من بادئ الأمر على الاحتفاظ بى إلى النهاية ، وجاراها أبى إذ كان شارعا فى الزواج من أخرى ، فاتفقا على نفقة ، ثم عادت بى إلى بيت جدى بالقاهرة ، وبعد وفاته عشنا وحيدين .

تابع القصة بقلب لم يخل من سوء ظن . كحاله مع جميع النساء والأمهات خاصة . بيد أن إلهام لم تسمع قطعا عن القوادين والبلطجية والبرمجية . هل تستطيع أن تحكى قصتك فى مثل هذا التفصيل ؟. وغيمت روحه كالسماء .

ـــ ويوما قال خالى إن على أن أعرف أبى فقالت أمى أنه لا يستحق ذلك وأنه لم يسع إلى رؤيتها مرة واحدة ، وكنت أشعر طوال الوقت أننى بلا أب ، وقال

خالى إننى أكبر يوما بعد يوم وأنه لا غنى لى عن أبى بحال .

فغمغم وهو لا يدرى تقريبا :

ــ والحرية والكرامة والسلام !

فهزت منكبيها فى استهانة وقالت :

ــ أصرت أمى على الرفض خشية أن يفكر فى استردادى ، وانضممت إليها بلا تحفظ ، واتفق رأينا على أن العمل أهم من الأب وأبقى .

آه كيف تتكلم الجميلة ؟. أى عمل يغنى عن الحرية والكرامة والسلام ؟

ــ واجتهدت حتى أكملت تعليمى ، وحصلت على الوظيفة فى امتحان أعلنت عنه الجريدة ، وانتسبت بعد ذلك إلى معهد تجارى عال .

ــ وأبوك ألا تفكرين فيه ؟

ــ كأنه غير موجود ، وهو الذى اختار ذلك !

ــ لأنك فى غير حاجة إليه ؟

ــ كلا ، فأنا فى غير حاجة إلى أمى كذلك ولكنى أحبها ولا أتصور الدنيا من غيرها .

ليست على شفا هاوية مثلك . وليست جائعة إلى الحرية والكرامة والسلام . ولا يهددها ماض ملوث قد ينقلب فى أى لحظة فيصير لها المستقبل الوحيد .

ــ إنى سعيدة بعملى رغم أننى لست مثلك من الأغنياء !

طعنته وهى لا تدرى . لكن الهيام غلب على جميع مشاعره . ولولا خوفه لاعترف لها بحقيقة حاله . ولما ذهبت شعر بقلق فى وحدته . إن سمو عواطفه نحوها يغريه بأن يجرب معها حيوانيته . وهو إغراء يقترحه عقله لا إحساسه . وهو إذ يتخيل ذلك فإنما يتخيلها مذعورة من المباغتة ثم يتخيل نفسه مخذولا منهزما . وليس عقله وحده الذى يغريه بذلك ولكن تقاليده فى معاملة النساء ورغبته الثابتة فى العبث بما يسمى بالأخلاق الفاضلة . وكما يغطى تلوثه بالقوة

فهو يغطيه أيضا بالاعتداء على الفضائل ليجعل من ماضيه قاعدة لا استثناء معيبا . ولذلك فإن إلهام وإن قامت فى حياته كالنار إلا أنها أقلقت مخاوفه وعقده وزعزعت أركان العالم الذى بناه لنفسه واطمأن إليه ، وفى الحقيقة هو لا ينسى عذابه إلا فى نار كريمة التى تشتعل فى ظلام النصف الثانى من الليل .

ومشى فى الشوارع مستسلما لجو نوفمبر اللطيف المنشط ، حتى بلغ فندق القاهرة حوالى العصر . ورأى عم خليل مهوم الرأس تحت طربوشه الطويل . وعم محمد الساوى مقتعدا كرسيه من خلاف عاقدا ذراعيه فوق مسنده . جلس فى الاستراحة ساعة ثم قام إلى التليفون فطلب إلهام وقال لها :

ــ سأقابلك غدا فى فتركوان فهل تأذنين ؟

ــ بكل سرور ، ولكن خيرا إن شاء الله ؟

ــ كله خير ، ولكنى سأقابلك كلما أمكننى ذلك !

٧

العزاء الحقيقي تجود به ظلمة النصف الثانى من الليل ، عندما تعزف الأنفاس المترددة ألحانا من الغايات . عندما يسود النسيان المطلق الأرض والأفلاك . غذاء دسم وراحة أبدية لا كالقلق النشوان وعذاب الوحدة التى تخلفها وراءها إلهام . ولم تنقطع عنه ليلة واحدة . مذ أيقظه طرقها الحذر من نومه السكران . ومضت سيطرتها تزحف عليه كالزمن لا مهرب منه . وهو بفضل تجاربه السابقة يمثل دور المسيطر المتحفظ ولكن لم تخونه اللحظات ؟ وبهذه القوة لم تتمكن منه امرأة من قبل ، ولم تشده بمثل هذه الأغلال . وهو لم يجد عندها استجابة واحدة فلم يدر إلا الظن ما حقيقتها . فليلة ذابت فى أحضانه وهمست فى أذنه :

ـــ لا حياة لى بدونك !

كذكريات الكنار الليلى على أنغام البحر وتلك الليالى الظافرة فى كل شيء . وربت على خدها بحنان وسيادة وهو يسبح بعزم ضد موجة تشده نحو أعماق الخضوع . هى كل شيء . الحب . والآمال التى بعثته وراء الأب الضائع . وفى ليلة أخرى أنس منها تحفظا شاردا . واستسلاما خامدا ، لا تعليق ولا حماس ولا نفور . عند ذلك سهد متفكرا حتى مطلع الفجر . ومن شدة ضيقه ناجى إلهام داعيا الروح المنبثق منها كعبير فاتن لا اسم له ، ويقول لنفسه إذا أردت أن تتخذ منى أسيرا فعلى الدنيا السلام . أنت الجحيم إذا سيطرت . وعن مآسى السيطرة تستطيع أن تحكى عشرات القصص . ولكن الحياة من غيرها لا طعم لها ، غثيان ، وفتور كالرماد ، ودون ذلك الجنون والدم . وكم كانت بسيطة عند ساحل الصيادين وإن لم تخل من مشاكسة . كموهبة كامنة لم تنضج بعد . ها أنت تسلكها فى ذكريات الأنفوشى بعناد لا مبرر له ، وتلك حقيقة ضاعت كموجة فى بحر . وهى ليست الحب وجده ولكنها نسيان سحرى لعذاب البحث العقيم

عن الأب ويأسه ، وهرب من دوامة القلق التى تخلقها إلهام ، وهى فى ذات الوقت لا تخلو من مزية أو أكثر اختصت بها إلهام أو الأب . وقال لها وهو يتعذب من تغيرها :

ــ لست كعادتك .

فسألته بسذاجة :

ــ هل تجدنى أحيانا مختلفة ؟

أماكرة هى أم ذاهلة !. أنسيت لحن الاعتراف المعربد المجنون ؟.

وأمك تكشف لك مرة عن وجهين . حين طمع صديق فى زيارتها بمسكن النبى دانيال . طردته من شراعة الباب بقسوة وحشية ثم خلت إلى نفسها وهى تسب وتلعن . ثم أغمضت عينيها إعياء وتهاوت بلا حول وأجهشت فى البكاء .

وقال بلا اكتراث فى الظاهر :

ــ حسبتك متوعكة .

فقالت ببساطة ولكن خيل إليها أنها تتحداه :

ــ إنى على خير حال .

ــ يسرنى أن أسمع ذلك .

فداعبت خده براحتها قائلة فى هدوء :

ــ ألا ترى أنك أعز عندى من الحياة نفسها ؟

أنت لا تتعامل بالألفاظ ، وجميع ما يحيط بك ينذرك بالمتاعب ولن يكون هذا بلا ثمن . قال بمكر :

ــ وأنت عندى كذلك وأكثر ، ولذلك فكلما اقترب الرحيل حزنت بلا حدود !

ــ أنت تتكلم عن الرحيل ؟

ــ السكوت لن يبعده .

ــ سنبعده بقدر ما نستطيع ولكن حيلتنا محدودة فغريزة النقود هى الغريزة

الوحيدة التى حافظت على قوتها عند الرجل !

— وفضلا عن ذلك فليس هو بالحل .

— هو جرعة إسعاف عند الضرورة .

— والرجل يقظ فى هذا الجانب ؟

— جدا . ولا تهمه النقود بقدر ما يهمه كيف أنفقها .

— غيور ؟

— فوق ما تتصور ، وبيننا اتفاق يجب أن أحترمه وإلا ضاع كل شىء ، ولكن ماذا تفعل أنت ؟، ألا عمل لك إلا انتظار مكالمة تليفونية ؟

— لو جاءت لاختفت متاعب الحياة .

— كان أبى على هامش الحياة .

— وليس كذلك أبى .

— كيف فقدته ؟

— تاريخ قديم سأحدثك عنه فى ظرف آخر .

— ولم لا يريد أن يتصل بك ؟

آه هذا هو العذاب الغامض الملىء باحتمالات لا حصر لها . وعادت تسأله :

— خبرنى عن حالك إذا لم يظهر الرجل ؟

— تصورى حال رجل بلا مال ولا أهل ولا عمل !

— وكيف عشت فيما مضى ؟

— ملكت الألوف ولكن لم يبق إلا عشرات .

— ماذا كنت تعمل ؟

— لا شىء ..

— لم لا تبحث عن عمل ؟

— لا قيمة لأى عمل يجىء عن غير طريق أبى .

— لا أفهم .

— ولكن صدقينى .

— أشتغل بتجارة .

— لا رأسمال ولا خبرة .

— وظيفة ؟

— لا مؤهل ولا وساطة .

ثم بعد هنيهة صمت :

— الواقع أننى لا أصلح لشىء .

فتخللت غابة صدره بأصابعها وهى تهمس :

— إلا الحب ..

فابتسم فى الظلام ثم سأل :

— ترى كيف تمضى بنا الحياة ؟

— الأمور معقدة وزوجى غير مأمون الجانب .

— كم أنه طاعن فى السن !

— هو كذلك ، وأضيف أنه من صلب معمرين عاشوا حتى قيل إن الموت نسيهم !

— وعمره على أى حال أطول من عمر البقية الباقية من نقودى .

— وقد يشم رائحة غريبة فى الهواء فلا نلتقى بعد ذلك !

فشد على راحتها فوق صدره وقال :

— عند اليأس نهرب .

— مستعدة لذلك ولكن ماذا نصنع بعد الهرب ؟

فقال بحدة :

— حتى حبنا لا قيمة له بدون أبى !

— فكر ولا تحلم .

— أيعنى هذا أنه يجب أن ننتظر ؟

— وكم تتحمل الانتظار ؟.. وماذا بعد الانتظار ؟

— الموت !

— ربما سبقناه إليه ، يخيل إلى أحيانا أنه سيدفننى ، لا مرض به ألبتة وبى أنا مرض الكبد واللوزتين .

— شيء مضحك !

— هو فى الواقع مبك ، وعند أول بادرة شك سأمتنع عن الزيارة .

— عند ذاك أجن .

— وأجن أنا أيضا ولكن ما الفائدة ؟.

— الانتظار غير مجد ، والهرب عقيم ، والتليفون حلم ، ما العمل ؟

— أجل ما العمل ؟.

— أظن الهرب أنسب الحلول .

— أبدا .

— إذن فهو الانتظار .

— ولا الانتظار .

— إذن ما العمل ؟

— آه ، مادمنا عاجزين فلنقطع ما بيننا .

سد فاها براحته لحظة وهو يقول :

— أهون من ذلك الموت .

فتنهدت قائلة :

— الموت .

ثم وهى تناجى نفسها :

— أجل ، الموت .

هزت نبرتها أعماقه فأرهف حواسه وقلبه يخفق . وطال صمت لدرجة أرهقته فقال :

— ماذا أسكتك ؟

— تعبت ، لا تسألنى عن شىء .

— ولكن مشكلتنا ما زالت عند نقطة البدء .

— دعها حيث هى .

— ولكن يوجد بلا شك حل .

— ما هو ؟

— إنى أسأل .

— وأنا أسأل .

— لكننى توقعت فى لحظة أن تقولى شيئا هاما ..

— لا رأى عندى ، ولكنه حلم ، كالتليفون ، أن أرث سريعا الفندق والمال المودع باسمى ، وأن نعيش معا إلى الأبد .

— آه ..

— عيبنا أننا عند العجز نحلم .

— ولكن الحلم قد يتحقق فجأة .

— كيف ؟

— يتحقق وحده !

— صوتك ضعيف يقطع بأنك لا تصدق .

— نعم ، وإذن ؟

— وإذن سيطلع الفجر ونحن لا ندرى ، وقد قلنا ما يمكن أن يقال .

ارتدت ثيابها فى الظلام وهو يتطلع إلى شبحها المتحرك وتبادلا قبلة وراء الباب ثم ذهبت .

اندس تحت الغطاء فغشيته كآبة مقبضة . الظلام لون الموت . وظلمة القبر تشهد الآن صورة لأمك لم يشهدها أحد . وعندما نطق القاضى بالحكم وددت أن تخنقه . وفى السجن قالت لك أمك « أنا عارفة الوغد الذى وشى بى ،

سأقتله » . كنت جميلة وقوية . وما اعترى صحتك فى السجن لا ينسى . وحبك لى لا ينسى كذلك . أما صورتك الآن فلا يمكن تخيلها . كم من هموم تتلاشى لو اعترفت لإلهام بكل شيء . هى تعطيك كل شيء صادق وأنت لم تعطها إلا حزمة من الأكاذيب . أبى .. لم تصر على الاختفاء ؟. قال : « أمك تظن أنها قتلتنى وفى الحقيقة أنا الذى قتلتها » . إذن فأنت مخيف لأنك قاتل « ولكننى كيف أهتدى إليك » . وإلهام أنت تغضبها وهى تقاوم بشدة . وتصيح وهى تدارى ثوبها الممزق « سأقتلك » . سأقتلك أنا لأخفى جريمتى . وارتفع صوت المؤذن عند الفجر فهاله أنه لم ينم دقيقة واحدة ولكنه تذكر الاغتصاب والقتل فهدأت نفسه قليلا وأدرك أن النوم سرقه وهو لا يدرى بعض الوقت . ولعله حلم بالسهاد فيما حلم . واستيقظ مرة أخرى فى السابعة وفتح النافذة فرأى الضباب يزفر على الآفاق ، والسماء طبقات من الألوان القاتمة . وترامى إليه صوت الشحاذ :

طه زينـــــــة مديحى   صاحب الوجـه المليـــح

وما كاد يبلغ باب الاستراحة حتى رأى عم خليل نازلا متكئا على ذراع على سريقوس ، متلفعا بالعباءة ، جلس ينظر إليه من بعيـد ، إلى يده المعروقة المرتعشة ، والكوفية السوداء التى أخفت عنقه النحيل . خير ما تفعل يا عم خليل هو أن تموت . أنا أعرف عنك أكثر مما تتصور . أنت لا تنام إلا بالمنوم وبعد أن ندلكك كريمة طويلا . وسعادتك تمارسها فى الحنان العقيم ، ولذتك الوهمية عندما تجردها من ثيابها فتذهب أمامك وتجيء ثم تحبها براحتيك . يستوى لدى أن يجيء أبى أو أن تذهب أنت . مرة أوشك أن يقتل فى الكنار الليلى . فى طرقة المرحاض اعترضه ضابط بحرى وقال له : « اترك علية فنار وإلا .. » . واشتبكا فى صراع مخيف . تلقى منه ضربات وكيل له ضربات وحشية . ولم يكف حتى حين استلقى غريمه بلا حراك . ولم تعد مجرد خطة للتغلب على الخصم ولكن اندفاعا جنونيا للقضاء عليه . لولا أن رمى النادل بنفسه عليه صائحا « هل تحب

المشنقة ؟ » ؟. وعند الفجر قالت له أمه « يا حسرتى لما أسمع أننى كنت سأفقدك ! » . وقالت « إذا ضايقك وغد فخبرنى وأنا قادرة على إرساله إلى القبر » . كما فعلت مع منافسة لها فقتلها رجل من أعوانها ثم فر إلى ليبيا . وقالت الإسكندرية إن بسيمة عمران هى الفاعلة الأصلية . ولكن أين الدليل ؟. أما أنت يا عم خليل فلن تتغير تغيرا يذكر بعد الموت .

٨

قال صابر يخاطب الأستاذ إحسان الطنطاوى :

ـــ أظن أن الاستمرار فى الإعلان عبث ؟

فأجاب الرجل بتسليم :

ـــ أظن ذلك .

ـــ لا شك أنه اطلع على الإعلان ، هو أو أحد من ذويه .

ـــ هذا هو اعتقادى .

وتدخلت إلهام فى الحديث قائلة :

ـــ إذن فهو يرفض العودة .

فقال صابر :

ـــ أو لعله يقيم فى جهة نائية ، أو خارج القطر .

ـــ على أى حال فالاستمرار فى الإعلان كما قلت عبث ؟

ثم وهى تزداد حماسا لفكرتها :

ـــ كل شيء يتوقف عليه وحده ، والزمن هو الذى يعالج مشكلة من هذا النوع ، وسوف يعود إليكم عندما يريد ذلك ، كما نقرأ أحيانا عن عودة الغائبين .

إنها لا تدرى أنه هو المحتاج إلى الغائب وليس العكس . وأنه لا يحتاج إليه حبا فى الحرية والكرامة والسلام فحسب وإنما خوفا من التردى فى الجريمة . إنها لا تدرى شيئا عن الجريمة التى تتعقبه ، ولا المأزق الذى سيجد نفسه فيه عندما تنفد نقوده فى القريب . ولم يعد فى الطاقة الاستعانة بالمحامين ومشايخ الحارات وغير هؤلاء من المرشدين ، وإنه يفكر كثيرا فى نفض يده من الأمر ولكن لا يهون عليه الكف النهائى عن البحث . وإذا قرر يوما الكف عن البحث فسوف يندفع فى

طريق آخر كثور أعمى . قال :

— فلنجدد الإعلان للمرة الأخيرة .

وانتظر فى فتركوان ، لا يكاد يمر يوم دون لقاء . صار اللقاء عادة جميلة للطرفين . أجل فى النصف الثانى من الليل ينسى كل شيء ولكن ما أن ينبلج الصبح حتى تنزع نفسه شوقا وحنانا إلى إلهام . وفى محضرها ترتفع به مشاعره إلى آفاق من السعادة والأنس والصفاء ولكن رغبته الغشوم فى كريمة لا تموت ، تغفو إلى حين ولكن لا تموت . جاذبية إلهام لا تخمد ولكن سيطرة الأخرى لا مهرب منها كالقضاء . ولشدة وطأة هذه السيطرة يمقتها أحيانا بقدر ما يعشقها ، وكم نادى باطنه إلهام لكى تنقذه ولكنه نداء اليأس . وشد ما يهرب من هذا السؤال المزعج « من تختار إذا خيرت » ولكنه يدأب على جسه كدمل كامن . أحيانا يمقت وهو ينتظر كالأسير . وإلهام سماء صافية يجرى تحتها الأمان وكريمة سماء ملبدة بالغيوم تنذر بالرعد والبرق والمطر ولكنها أيضا سماء الإسكندرية المحبوبة . وكان يحتسى الشراب على صوت الرعد بالنبى دانيال ويدفئ قلبه بالقبل . وهى تأبى أن تعترف بأنها فتاة عطفة القرشى ، لماذا تخفين الأسرار ؟ لأنك العذاب والشيطنة . وقد التحمت فى خياله بهدير البحر ورائحة الماء المالح واليود وحنين الوطن ومغامرات الليالى المفعمة بالشهوات والمعارك البهيمية . وهى مثله تغلى فى شرايينها دواعى الفطرة والغريزة والعمى والقحة لا كإلهام نسمة تستقر فى ذروة لا يرقى إليها أحد . ونظر إلى عينيها ترنوان إليه وهى تتخذ مجلسها قبالته . وأبدت ملاحظة عن انشغاله فقال :

— عندما أستنفد وسائل البحث فلن أجد عذرا للبقاء فى القاهرة .

فأسبلت جفنيها وهى تسأله :

— أقررت متى تسافر ؟

— لا أتصور أى حياة خارج القاهرة !

فقالت بصراحة فاتنة :

— كلام جميل أرجو أن تحققه !

— هذا ما أفكر فيه بلا انقطاع .

— وأهلك وعملك ؟

— لكل مشكلة حل ، يخيل إلى ...

ثم واصل حديثه بعد انقطاعة قصيرة :

— يخيل إلى أننى لم أجيء إلى القاهرة للبحث عن سيد سيد الرحيمى ولكن لكى أجدك أنت ، أحيانا نجرى وراء غاية معينة ثم نعثر فى الطريق على شيء ما نلبث أن نؤمن بأنه الغاية الحقيقية !

فقالت بصراحة أفتن من الأولى ولكن بوجه مورد :

— أما ناحيتى فأنا مدينة لسيد سيد الرحيمى !

قال بنشوة عجيبة :

— ما أجملك !، ما أجمل الحب ، هو الحب الذى يشدنى إليك يوما بعد يوم ، وهو الذى يكمن وراء كل كلمة من كلماتى إليك مهما يكن موضوعها الظاهرى ، واسمه لم يجر على لسانى قبل الساعة ، ولكن لولاه ما كان ثمة مبرر أو معنى لأى كلمة قلتها ..

فغمغمت شفتاها بكلمات لم تسمع ، فتساءل :

— أليس كذلك ؟

فقالت مستردة شجاعتها :

— بلى ، وأكثر ..

وانتشى لحد الطرب ، وأعرب عن نشوته بضغطة رقيقة من راحته فوق ظهر كفها ، ثم تذكر أنه سيلقى كريمة بين ذراعيه بعد ساعات فساوره القلق ، وخاف العينين الزرقاوين السعيدتين ، ثم تراءت له أخيلة مظلمة نفثت فى أعصابه بهيمية خفية . آه .. كثيرا ما عشق أكثر من امرأة فى وقت واحد بلا عذاب ولا قلق . ولكنه مع إلهام تعذبه كريمة ومع كريمة تعذبه إلهام والتوحيد بينهما أمنية

لا يجرؤ على تمنيها .

وسألها هاربا من أفكاره :

ـــ خبريني ألم تعرفي الحب من قبل ؟

فقالت بلا تردد وهي تبتسم :

ـــ لا ، لا أظن ، عواطف الصبا وهمية ، وأين هي ؟، لا أثر هناك لها ، وهي كانت موجهة إلى ممثل كبير قد مات من زمن ، لا ، لم أحب قبل هذه المرة ، ولكنى خطبت مرة وفسخت الخطبة عندما طالبنى بالاستقالة من وظيفتى ، وبعض الزملاء فى الجريدة يكلموننى عن الحب بأسلوب الصفحة الأخيرة من الجريدة ، كل ذلك لهو لطيف بلا غاية ، سأحدثك عن ذلك كله فيما بعد ، على شرط ألا تسافر ، أو على الأقل ألا تنسى القاهرة ..

ـــ قد أسافر إلى آخر الدنيا ولكنى لن أنسى القاهرة !

ـــ حسن أن أسمع ذلك ، ولكن ما شأنك أنت مع الحب ؟

ـــ ما عرفته ينبغى أن يكون له اسم آخر .

ـــ إذن فلنمر عليه بسلام ، وأنا أفهم الحياة بدرجة لا بأس بها ، وعندما أنظر فى وجهك لا أشك فى أننى أرى وجه رجل صالح ..

سيطر بسرعة على دهشته ثم تساءل باهتمام :

ـــ ماذا تعنين ؟

ـــ لا أدرى ، أنت ... أنت ..، أعفنى من التعاريف ، شىء يشع من عينيك أقنعنى ..، هو المسئول ..، هو المسئول عن عواطفى الصادقة ، الأفضل أن تتكلم أنت !

العينان الصافيتان لا ترىان ، أيدل وجهه حقا على أنه رجل صالح ؟. وأين ذهبت عربدة الحياة والدعارة البهيمية ؟. وأمه وأساطيرها ونزوات الليالى المرعبة ؟. يجب أن يجىء الأب لينتشله من مأزقه ويطرد الأكاذيب . قال :

ـــ لا أود أن أمدح نفسى ولكن حبى دليل على أنى إنسان خير مما كنت

أظن !

ـــ أكثر من ذاك ، انظر كيف تشقى بالبحث عن أخيك ، أعرفته يوما ما ؟

ـــ كلا .

ـــ ومع ذلك فأنت تجد وراءه كما لو كنت عاشرته العمر كله ، أليس ذلك نبلا ؟

لعنة الله على الكذب . لذلك يفقد حديث إلهام معناه كأنه الصمت .

ـــ ما هى إلا مهمة كلفت بها ..

ـــ ولو !، ثم إن تحقيقها ليس فى صالحك من الناحية المادية فلا تنكر نبلك !.

كريمة مثله تمرغت فى التراب طويلا وهما يتفاهمان حتى على البعد . وفى أعمق لحظات الحب الحارة تتالك أنفاسها لتهمس فى أذنه « متى تختفى العقبة التى تهدد حبنا » فيمسه رعب الوعى كصفعة مباغتة وتهمس تضاعيف الظلام بالجريمة . أما إلهام فلا تقرأ فى وجهه سطرا واحدا من الجريمة . ولا يجرى لها على بال أنه يقتل للاستئثار بامرأة أخرى . وأنه بات يشم رائحة دم مسفوك . وأنه لا معنى لتشبث عم خليل بالحياة إلا أن يدفعه إلى مصير محتوم . ولأنك يا إلهام لم تنقذينى من الهاوية أحببت وأنت لا تدرين مجرما . وإذا مضيت فى الكذب عليك فسوف أجن . ولم تضعف أنت أمام الحقيقة بالرغم من أنك قاتلت حتى أوشكت أن تقتل ، وأنك تفكر طويلا فى القتل ؟. قل أنا فقير معدم ، والرحيمى أبى لا أخى ، وأنه إن لم يعترف بى فلن أساوى حفنة من تراب ، وماضى غارق فى الدعارة والفضيحة . آه .. ستصرخ من الفزع . وينطفئ شعاع عينيك الذى يلهم الحب . ثم ترى هى الوجه الصالح على حقيقته . لو أنشأتك أمك نشأة مناسبة لكنت اليوم قوادا سعيدا ، لكنها صانتك فى النبى دانيال لتتعذب أبد الدهر . ثم أحبت أباك لتحرمك نعمة اليأس .

ـــ ماما لها رأى ، هى تعرف عنك الكثير ، وقالت لم لا ينشئ عملا فى القاهرة ؟

ماما !. إنه يخاف الأمهات . كأمه تستطيع أن ترى حقيقته بنظرة واحدة . لن يعميها الإشعاع المزعوم الذى يشع من عينيه .

ـــ أى عمل ؟

بعد تردد :

ـــ هذا يتوقف على استعدادك !

قل لها إنك تتقن السكر والرقص والعراك والحب .

ـــ إدارة الأملاك هى خبرتى الوحيدة !

ـــ لا مؤاخذة ، ليس عندى فكرة عن دراستك ؟

تذكر المدارس الوطنية والأجنبية التى عبرها عبور المتفرج .

ـــ والدى لم يتركنى أكمل أى نوع من التعليم لحاجته إلى وبخاصة عقب مرضه !

ـــ فكر فى مشروع تجارى ، وأنا أعرف من الزملاء أناسا متنوعى الخبرة .

ـــ حسن ، سأفكر فى ذلك ولكن بعد مشاورة أبى !

وقال لها وهو يودعها :

ـــ من المؤسف أن هذا المكان لا يسمح لى بأن أقبلك .

العقل ينصحه بأن يهجر إلهام ولكنه لا يستطيع . هى كأبيه فيما تعده به وفى أنها حلم عسير التحقيق . أما كريمة فامتداد حى لأمه فيما تهبه من متعة وجريمة . ارجع إلى الإسكندرية واعمل قوادا لأعدائك . اقتل واغنم كريمة ومالها . استخرج الرحيمى من الظلمات وتزوج إلهام . آه .. وشتاء القاهرة قاس ولا يضمر المفاجآت ولا يعزف موسيقى السماء . وما أزحم شوارعها ومحالها فهى سوق تتلاصق فيها الأجساد والسيارات . وأكثر من امرأة تجد فيك ما تبحث عنه بنظرة واحدة حين تشقى أنت عبثا فى البحث عن الرحيمى . لعله هلفوت ضحك على أمك فأوهمها بأنه من الوجهاء . وكثيرا ما يجد لمحة من صورة أبيه المتخيلة فى هذا الرجل أو ذاك بين مئات من الوجوه المتتابعة . إنه يرفضه أو لعله

يخافه أو لعله ميت . وفى الشتاء سرعان ما تجنح الشمس للمغيب وترتفع أمواج الظلام . ولدى رؤيته عم الساوى سأله عمن يعرف من رجال الله القارئين للغيب فدله على رجل بالدرب الأحمر يدعى الشيخة زهرة ، ولما بلغ مسكنه وجده مغلقا مختوما بالشمع الأحمر وقيل له إن البوليس قبض عليه بتهمة الدجل . وتساءل صابر متى كان الدجل تهمة ؟. وعندما رأى الفندق وهو راجع إليه أثار فيه شعور برتابة البيت وكآبة السجن . وجلس فى الاسراحة وهى آهلة تضج بالأصوات وتختنق بالدخان .. ومن عجب أن الأحاديث لا تكاد تتغير رغم أن الوجوه تتغير كل يوم . وسمع رجل وهو يتساءل :

ــ ألا يعنىْ هذا فناء العالم ؟

فقال بلا وعى :

ــ فى ألف داهية !

وتعالت ضحكات فأيقظته ، وسأله سائل :

ــ حضرتك مع الشرق أم الغرب ؟

فقال وهو آسف على تورطه فى حديث لا يهمه :

ــ لا هذا ولا ذاك !

ثم تذكر جملة متاعبه فقال بتأفف :

ــ أنا مع الحرب !..

٩

فى تلك الليلة لم تأت كريمة فى ميعادها . انتظر فى الظلام عامر الرأس بخيالات الشراب . ومن الفراغ جسد صورا يصير بها شهوته ، ومرت ساعة كاملة بعد منتصف الليلة ولم تأت . هو لا يدرى شيئا عما يحدث فوق السطح ولكن كريمة لم تتخلف ليلة واحدة مذ طرقت بابه لأول مرة . وتقدم الوقت ساعة أخرى ساحقا أعصابه فيئس من ليلته وأيقن أن مجيئها بعد ذلك سيكون عبثا . وجعل ينظر صوب الباب مرهف السمع ولكن اليأس كثف الظلمة . وظل مسهدا حتى انطلق صوت المؤذن فقال إنه ينادى بفناء هذه الليلة . واستيقظ حوالى العاشرة فسخر من نفسه قائلا : « ليكن حساب عسير » ونزل إلى الاستراحة فتناول فطورا خفيفا وراح يراقب من بعيد علاقة المودة التى تؤاخى بين عم خليل ومساعده الساوى . وتساءل متى ينزل فيجد مكان عم خليل خاليا ؟ . وكيف يسأل كريمة عن أسباب تخلفها ؟ . وفجأة قامت معركة كلامية بين اثنين من النزلاء لم يدرك سببها ولكنه تابع باهتمام حركة أيديهما العصبية وكلماتهما الحادة وتهديداتهما التى لم يتحقق منها شىء ، ثم شعر بضجر غير محتمل .

وقرأ فى وجه إلهام ـــ فى أثناء تناول الغداء ـــ اهتماما أضفى عليها فتنته جدية ملحوظة . انجابت عنه هموم كثيرة وعاوده شىء من المرح فقال :

ـــ أعترف لك بأننى لا أجد لحياتى معنى إلا عند اللقاء .

فحدجته بنظرة إرادية وقالت :

ـــ الحق أنى لا أنقطع عن التفكير فى حياتنا .

عاتبها فى باطنه على توانيها فى امتلاكه والسيطرة عليه ، وعلى هزائمها غير العادلة أمام عدوتها الطاغية . أنت مسئولة عما سيقع . قال :

ـــ يسعدنى أن أسمع ذلك ، وأنا بدورى لا أنقطع عن التفكير !

ــ هات ما عندك ؟

قال وهو يلعن نفسه وأكاذيبها :

ــ أفكر فى أمرين : العمل والزواج !

ــ هل اقتنعت نهائيا باقتراحى ؟

ــ أجل ، ولكن على أن أتم مهمتى على أى وجه أولا ثم أسافر للاتفاق مع أبى ..

كره نفسه لحد الموت ، وتمنى أن يمحق أكاذيبه دفعة واحدة وليكن ما يكون . وقال إنه لم يعرف هذا النوع من الألم المحير قبل ذلك . وبدافع كالاستغاثة قال :

ــ لنذهب إلى سينما هذا المساء .

فى ظلمة السينما أخذ راحتها فى يده . الظلمة دائما . ورفع يدها إلى فمه فلثمها فى سعادة عجيبة . وتشمم منها عبيرا طيبا فى سرحة طائرة . وقال إنه يستريح من الاحتراق والجريمة أما العذاب الذى يخشى أن يعذبه فى النصف الثانى من الليل فيطرده عن باله . وهمست إلهام متسائلة :

ــ أليس هذا ظلما بينا ؟

ولم يكن يتابع الفيلم بحال فهمس مداعبا :

ــ افتراقنا ساعة واحدة ظلم أفظع !

وتركز فى الشاشة لأول مرة فرأى رجلا يضطهد فتاة وسمع حوارا عنيفا ، ولأنه لم يتابع القصة من أولها بدا له المنظر حركات وكلمات لا معنى لها . كما نشاهد أجزاء من حياة الناس منقطعة عن ملابساتها فنمر بها دون اكتراث وأحيانا ضاحكين مما يستحق الرثاء . وكم يبدو بحثك عن أبيك من خلال الإعلان مضحكا ومغريا بالمزاح . وهل تجىء كريمة الليلة فى ميعادها ؟. أو يتعذب حتى الفجر ؟. وكيف تنجلى هذه المتاعب كلها فى البحث والحب ؟. ولحظ إلهام فى لحظات المناظر الشديدة الإضاءة فرأى استغراقها فأحنقه ذلك وأوقف مداعباته

لراحتها ، وأراد أن يسحب يده ولكنها شدت على أصابعه فشد على راحتها ممتنا . وغادرا السينما فأوصلها إلى محطة الباص ومضى إلى بقالة الحرية بكلوت بك فأكل بسطرمة وسردين وشرب نصف كونياك . ورجع إلى حجرته عند منتصف الليل فلبث فى الظلام ينتظر . ولم يعد الغيب بأى أمل ، واشتد الصمت خارج الحجرة كالصمم .

وتتابعت الدقائق فى عذاب وحنق . لا .. لم يعرف هذا الذل من قبل . ذل الرغبة الجائعة .. ذل البحث الخائب .. ذل الخوف من الذل . ولحقت الليلة بسابقتها مسهدة ملعونة مصدعة . ورسم أن يوجد بالفندق فى عصر اليوم التالى فشهد نزول كريمة إلى مجلسها بجانب زوجها كما رآها أول مرة . تفشى عذاب الرغبة فى كيانه فهاله أن تستأثره المرأة لهذا الحد . وتجنبت أن تنظر ناحيته وهو فى ركن الاستراحة يتصيد . لا تعرف جنونى فهى لا تخشى عواقبه . ولما قامت لتصعد إلى شقتها التقت عيناهما لحظة عند استدارتها فرمته بنظرة محذرة ثم ذهبت . ما معنى هذا التحذير ؟!. العجوز لم تتغير معاملته لها وهو فى سن لا يملك معها قوة أعصاب لمداراة ما فى نفسه . وفكر أن يلحق بها فى الدور الثانى أو الثالث ولكنه لمس سرعة صعودها كأنما حسبت حساب أفكاره فأعادت التحذير بصورة أخرى . الأيام تمر والنقود تتناقص وحكاية الأب أمست أسطورة سخيفة لا يركن إليها بحال . ولا غنى له عن هذه المرأة فهى حياته والأمل الباقى له فى الحياة . وتكرر التسكع بالليل فى كلوت بك والسكر والانتظار فى الظلام ليلة وليلة وليلة . وهو راجع عند منتصف الليل قال محمد الساوى بصوت نعسان :

— سأل التليفون عنك عصر اليوم .

آه .. لم تعد أنباء التليفون تهز أعماقه ولكن آه لو يخلف ظنه ويجيئه بالمعجزة فى هذه اللحظة من اليأس والعذاب !. قال الرجل :

— صوت امرأة ..

— بخصوص الإعلان ؟

— كلا ، سألت هل أنت موجود فقلت لها إنك لم تعد بعد فأغلقت السكة !

إلهام ؟. من شدة نكده لم يقابلها فى اليومين الأخيرين . ولما خلع بدلته وأطفأ المصباح سمع نقرة على الباب !. وثب وثبة مجنون وفتح . شد على ساعديها بقوة وهتف بغضب وشى رغم زمجرته بالراحة السعيدة .

وجذبها صوب الفراش وهو يقول :

— أنت !.. الويل لك ..

— أنت تمزق لحمى !

— كما مزقت أعصابى !.

— وماذا تعرف عن عذابى أنا ؟.

أراد أن ينزع عنها الروب ولكنها أمسكت بساعديه :

— كلا .. البقاء مجازفة غير مأمونة .. سأقول كلمة ثم أذهب ..

— ادعى الشيطان ليدافع عنك !.

— أنت سكران ولكن اضبط نفسك ، حركة بسيطة قد تهدم كل ما بنيناه .

أجلسها إلى جانبه على حافة السرير وهو يسأل :

— ماذا حصل ؟.

— عند رجوعى آخر مرة من عندك استيقظ على غير عادة وسألنى هل كنت طوال الوقت إلى جانبه فاعتذرت بالعذر المألوف وخيل إلى أن على سريقوس لمحنى ، لست متأكدة ولكنى خفت خوفا شديدا !

— لعلها أوهام !.

— لعلها ولعلها ، لا يجوز أن نجازف بكل شىء ، سنخسر الحب والأمل ، كلمة واحدة منى تقضى على بالفقر الأبدى لا تنس ذلك .

وتنهدت ثم استطردت :

— لذلك امتنعت عن المجىء ، ولم أستطع بطبيعة الحال أن أفسر سلوكى ، وقدرت وأنا فى غاية من العذاب حالك وأفكارك ، ولكن الرجل لم يكتب كل شىء باسمى إلا بعد أن أخذ على عهدا بالوفاء ، قال أنت يدى وعينى وابنتى وزوجتى ، لا تنغصى على صفو الأيام الباقية ..

— إذن ؟

— وإذن فيجب أن أمتنع عن الحضور بتاتا ، هذا هو الأسلم .

— هذا جنون !

— هذا هو العقل .

— كيف أنتظر ، إلى متى أنتظر ؟

وهى تتنهد :

— لا أعرف الجواب كما تعلم .

— وسوف تنفد نقودى وأضطر إلى السفر .

— يمكننى أن أمدك بالقليل منها لإطالة بقائك أكبر مدة ممكنة .

— لن يغير هذا من المصير المحتوم .

— أعرف هذا ولكن ما الحيلة ؟.. أنا معذبة مثلك .

— أنا أشد ، أنا مهدد بالعذاب والإفلاس معا .

— وأنا أتعذب لنفسى ولك ، كيف لا تدرك هذا ؟

تساءل وكأنما يخاطب نفسه :

— متى يموت الرجل ؟

— أنت تسألنى كأننى مطلعة على الغيب !

— وماذا أنت إذن ؟

— امرأة تعيسة ، أتعس مما تتصور .

— قد يسخر من مخاوفنا الموت ويموت فجأة .

— هذا محتمل .

ـــ رجل طاعن فى السن ولا يمكن أن يعيش إلى الأبد .

ـــ قد يموت الليلة وقد يموت بعد عشرين عاما فى سن أخت له ماتت منذ عامين !

ـــ اللعنة .

ـــ لا حيلة لنا ، ويجب أن أذهب الآن .

ـــ ولا أراك إلا بعد موته ؟

ـــ قلت لا حيلة لنا .

ـــ بل هنالك حيلة .

وصمتا فى الظلام حتى سمعا هسيس الصمت ، وإذا به يقول :

ـــ أنت تذكريننى طيلة الوقت بحديث قديم ، حديث إشارات متقطعة يشهد عليها هذا الظلام ، فلنتكلم بالصراحة هذه المرة ،.. على أن أقتله .؟!.

قالت بنبرة مضطربة :

ـــ أنت لا ترتاح إلى هذا الحديث ، لذلك نبذته ، لست قاسية ولا متوحشة ، عيبى الوحيد أننى أحبك بجنون ، الأفضل أن ننتظر ..

ـــ حتى يموت فى سن أخته ؟

ـــ حتى يأمر الله بما يشاء .

وركبه تصميم جنونى فنهض فى الظلام ، يائسا كل اليأس ، ثم جلس مرة أخرى شاعرا بالتهاب رغم برودة الجو ، تساءل :

ـــ ماذا بعد الجريمة ؟

لم تنبس بكلمة ، وأحس الظلام دخانا كثيفا :

ـــ لا تضيعى الوقت هباء ، ماذا بعد الجريمة ؟

سمع همسا غير مبين كأنما تريد أن تتكلم فتمنعها شرقة . ثم جاء صوتها كأنما يزحف من جحر :

ـــ ننتظر فترة .. لكن فى أمان .. ويمكن أن نلتقى فى خفاء .. ثم أكون لك أنا

والثروة ..

قال وهو يكور يده فى الظلام :

ـــ اليأس لا يدع لنا سبيلاً ولا وقتا للاختيار .

ـــ للأسف .

ـــ ولكن ماذا ينبغى أن أفعل ؟

قالت بعد صمت أقصر بكثير مما قدر :

ـــ ادرس العمارة الملاصقة للفندق .

آه هى مبيتة كل شىء . الجريمة جاهزة فى رأسها الرشيق ، مغفور لها كل شىء ما دام قد دبر فى سبيل حبه .

ـــ شقة مأجورة لخياطين وبياعين بدل نصف عمر ، فهى تخلو ليلا ، ولا يصعب الدخول أو الخروج منها .

ـــ هذه هى العمارة .

ـــ سطحها ملتصق بسطحنا !

ـــ يعنى الانتقال سهل .

ـــ تجىء إلى سطحنا ، يجب أن تنتظره فى الشقة !

ـــ أظنه يصعد إلى شقته بين الثامنة والتاسعة ؟

ـــ وليكن فى اليوم الذى أذهب فيه إلى زيارة أمى وهى ميعاد معروف من كل شهر .

قال بدهشة :

ـــ لا أصدق أننى لم أكد أتم شهرا فى الفندق !

ـــ ومن السهل بعد ذلك أن تنتقل إلى العمارة التى جئت منها .

فقال بارتياب :

ـــ كثيرا ما نسمع عن جرائم من هذا النوع عند اكتشافها !

فقالت ببرود :

ـــ لأننا لا نسمع إلا عن الجرائم التى تكتشف .

جبارة ، كأمك أو أكثر !

ـــ أهذا هو كل شىء ؟

ـــ كلا ، يجب أن تقع سرقة لتبرر القتل !

ـــ وماذا أسرق ؟

ـــ دع ذلك لى ، احذر أن تترك أثرا ، إن الكلاب تجرى وراء الأثر !

ـــ يبدو أن التنفيذ سيكون غاية من الأحكام .

ـــ حياتنا حياة واحدة ، فإذا قضى عليك قضى على ، ولا حيلة لنا فى البحث عن طريقة للخلاص من الألم والجنون .

وهز رأسه قائلا فى حيرة :

ـــ جنون ، جنون ، هل تصدقين أن شيئا من ذلك سيقع ؟

فقالت ببرود :

ـــ ادرس العمارة جيدا ، أمامك أيام احذر أن يراك أحد وأنت تنتقل من سطح إلى سطح ، أنت جرىء وإلا فلا يجوز أن أدعى أنى أفهم شيئا فى الدنيا ..

ومضى يفكر . أما هى فقالت :

ـــ لنبدأ من الأول من جديد ، خطوة فخطوة حتى لا يفوتنا شىء ..

١٠

تذوق اللبن والبيض والفاكهة وانظر جيدا إلى هؤلاء الناس فى الاستراحة فعما قريب ستختلف عنهم جد الاختلاف . وعندما يأتى الليل ستكتسب صفة دموية غريبة فتنضم إلى طائفة المجرمين . ها هو عم خليل أبو النجا ، الصياح البارد ، يده لا تكف عن الارتعاش ، ولا يفكر فى الموت . سيقف عمرك عند العاشرة مساء ، أنت لا تعلم ولكننى أعلم ، فلا تشغل بالك بمتاعب الدقيقة التالية ، تقبل نصيحة أخ بائس ، ولعلى الآن أشارك الله فى بعض علمه بالغيب ، مذ قبلت أن أكون قاتلا . ورن جرس التليفون فضحك ضحكة سمعها الأقربون من حوله ، أهو سيد سيد الرحيمى يجىء فى اللحظة الحاسمة ليغير المصير المحتوم ؟، ورفع عم محمد الساوى السماعة ثم قال : « لا .. لا يا حضرة » . لا .. لا .. وأنا أقول لا يا سيدى الرحيمى ، أنت تنكر ابنك وابنك سينكرك ، ليس فى حاجة إليك ، سيبحث عن الحرية والكرامة والسلام عند غيرك . هل أنت تتثاءب يا عم خليل فحتام تغالب النوم الأبدى ؟. لماذا تصر على جرى إلى مصير محتوم ؟. ما معنى أن يتمتع بمالك سالب حياتك ، وأن تسقط أمى بلا عقل ، وأن يصمت أبى بلا رحمة ، وأن تتعلق آمالى بإزهاق روح ، خبرنى عن معنى ذلك كله ، أسبوع مر ولا فكر إلا فى الجريمة وكم كانت الأحلام مختلفة عندما تحرك القطار من محطة الإسكندرية ، وهؤلاء الرجال ألم يرتكب أحدهم جريمة !. ثرثرة المال والحرب والحظ التى لا تنتهى ، ونبوءات عن جرائم الغيب ، وغفلة تامة عن جريمة تدير تحت أعينهم .

حوالى العاشرة غادر صابر الاستراحة فحيا عم خليل ومضى إلى الطريق وهو يقول لنفسه « غادرت الفندق فى العاشرة ولم أرجع إليه قبل الواحدة صباحا » ألقى نظرة على مدخل العمارة المجاورة ، كأنه سوق لكثرة الداخلين والخارجين

ثم قال لنفسه : « السطح خال ، ولا يرى من مكان قريب ، والظلام ينتشر ابتداء من الخامسة مساء » . فكر فى زيارة إلهام بالجريدة ولكنه افتقد التركيز الضرورى للزيارة ، وكره محادثتها وهو ينضح بالدم . وماذا يقول لها وهو يهجر طريقها إلى الأبد ؟. ومر أمام الجريدة وهو حزين حقا . وتخيل مجلس إلهام ، ونظرتها ، وسؤالها المألوف عن الرحيمي ، ولفتاتها الرقيقة ، وعجزه عن الارتفاع إلى مسئولية حبها . وقتل الوقت بالمشى فى الشوارع ، وتناول غداءه فى بقالة الحرية بكلوت بك وشرب كأسين . وقال له البقال :

ـــ الجو ردىء .

فقال وهو يغادر المحل :

ـــ أنا مجرم من سلالة مجرمين !

ومضى وضحكة الرجل تودعه . وصمم فجأة على مقابلة إلهام فى فتركوان ولكنه لم يجدها ، وقيل له إنها ذهبت عقب الغداء مباشرة ، وأفاق من تصميمه المندفع فجفل من فكرة زيارة الجريدة . ولبث فى المحل حتى الخامسة ثم مضى إلى شارع الفسقية فوقف تحت البواكى فى شبه ظلمة على الجانب المقابل للعمارة المجاورة للفندق . وهو يتفحص المكان . وارتفع صوت الشحاذ بالمديح غير بعيد من موقفه فتقزز من المفاجأة ، وانتهز فرصة انشغال البواب بمساومة بائع خس فعبر الطريق إلى العمارة ودخل . شق سبيله فى مدخل مزدحم . ورقى فى سلم مزدحم كذلك وصاخب ، بين أبواب مفتوحة على شقق مكتظة بالعمال والزبائن . وقد وقعت عليه أعين كثيرة ولكنها لم تره . وجعل يختلس النظرات إلى الوجوه ليرى إن كان ثمة أحد يعرفه من نزلاء الفندق ، حتى بلغ السطح فى أمان ، فى الفضاء تبدت الظلمة أقل كثافة فرأى السطح مغطى بالنفايات ولكنه خال من الآدميين . اطمأن نوعا ونظر فيما حول سطح العمارة فلم ير مبنى يطل عليه ، ثم استقرت عيناه على سطح الفندق فرأى ـــ متفضا ـــ كريمة وهى تجمع الغسيل . هى تنتظره بلا شك ، ولعلها رأته وهو يعبر الطريق إلى مدخل العمارة ، ويداها

مهتمتان بفك المشابك ولكن وعيها مركز فى طرف عينها المتجسسة . رأته عند مدخل السطح فأشارت إليه بالاقتراب فدلف من السور وقد انحصر وعيه فى تصميمه الجرىء كاسحا وساوسه واضطرابه ، وظلت مولية ظهرها كأنها لا تشعر به ، وسألته :

ــ هل رآك أحد يعرفك ؟

ــ كلا ..

ــ على سريقوس تحت ، سأقف عند رأس السلم حتى تعبر السور .

وذهبت حاملة الغسيل حتى غيبها جدار الشقة الذى يشطر السطح فنظر حوله بحذر ثم وثب إلى السور وهبط فوق سطح الفندق وتقدم فى أثرها ثم وقف أمام مدخل الشقة . أطل رأسها من وراء باب السطح وهمست :

ــ الباب مفتوح فادفعه وادخل .

اتجه نحو الباب وضغط عليه براحته فانفتح . شهق بعمق ثم زفر ، ودخل فى دهليز غارق فى الظلمة فتسمر وراء الباب . وما لبثت أن لحقت به فأغلقت الباب وأضاءت المصباح . رآها شاحبة الوجه براقة العينين ، ولا أثر هناك لحيوتها الفاتنة ، تعانقا بلا مقدمات وبعصبية وعنف ولكن بلا روح ولا حس ثم انفصلا وهما يتبادلان نظرة ذاهلة . قال :

ــ أى خطأ سيهلكنا .

فقالت بنبرة جافة :

ــ ثبت قلبك ، كل ما حولنا مطمئن ، وسينتهى كل شىء كما رسمنا .

وتقدمته لتريه الشقة الصغيرة ، من الدهليز إلى حجرة كبيرة أعدت للنوم ، متصلة بباب مشترك بحجرة أصغر للسفرة والجلوس ، وسوى ذلك لا توجد إلا المرافق . ألقى نظرة على أثاث الحجرة الكبيرة فخيل إليه أن للسرير والصوان والكنبة التركية أعينا ترنو إليه ببرود وعدم اكتراث ، وأوشك أن يفصح عن مشاعره ولكنه خجل من ذلك واكتفى بقوله :

ـــ الحجرة كئيبة ..

فأجابت وكانت تفيق رويدا رويدا من صدمة اللقاء والتسلل :

ـــ ربما ، المهم أنك ستنتظر هنا فى حجرة النوم ، ويجب أن تختبئ تحت السرير بمجرد أن تسمع الباب الخارجى وهو يفتح :

ـــ الأرض خشب ؟.

ـــ أجل ، ومغطاة بالبساط ، البساط يغطى أرض الحجرة كلها ..

ـــ طبعا سيغلق الباب الخارجى ؟

ـــ طبعا ، الساوى يوصله عادة وخاصة حال غيابى ، وهو يغلق الباب بنفسه ، وغالبا ما يترك المفتاح فى القفل أو يضعه على الترابيزة ، وستفتحه وتخرج ..

ـــ ألا أفاجأ بوجود أحد فوق السطح ؟

ـــ كلا ، على سريقوس ينزل بعد توصيل الرجل وهو ينام فى الدور الثالث .

ـــ سيسألون كيف دخل الـ ..؟

ـــ ستكون النوافذ مغلقة ، فإما أنه نسى أن يغلق الباب بعد ذهاب الساوى ، أو أنه فتح لطارق ..

ـــ هل يعقل أن يفتح لطارق قبل أن يسأله عن هويته ؟

ـــ لعله سمع صوتا يعرفه !

ـــ وتتجه الظنون إلى من يعرفهم فى الفندق ؟

قالت ببرود :

ـــ هذا حسن ، لن يقع برىء ، والمهم أن تنجو أنت ..

ثم أشارت إلى حقيبتها وقالت :

ـــ تمت السرقة المطلوبة ، بعض حلى وبضعة جنيهات . وقد فتحت باب الصوان بنصل سكين وبعثرت الملابس ، هل أتيت بالقفاز ؟

ـــ نعم .

— حسن جدا ، وإليك قضيب الحديد ..

أشارت إلى القضيب فوق الترابيزة وقالت :

— أحضرته من الطقيسى ، وكان رجل كرسى ولادة أثرى فلا تمسه إلا بالقفاز احذر أن يسقط منك شىء وأنت تحت السرير .

خيل إليه أن وجهها ذبل تماما من شدة إشعاع عينيها . قالت :

— يجب أن أذهب .

وتعانقا كما تعانقا أول مرة ثم قال :

— ابقى بعض الوقت ..

— ولكن حان وقت الذهاب .

— ألم تنسى قول شىء ؟

— ثبت قلبك . وتصرف بعقل فى كل خطوة تالية ، ور ...

— وماذا ؟

حدجته بنظرة غريبة ثم همست :

— لا شىء ، ادخل تحت السرير .

وتعانقا للمرة الثالثة ، كأنما يتشبث بها . ثم مضت إلى الخارج وهى تنادى بأعلى صوتها على سريقوس فسارع بالدخول تحت السرير . وعادت كريمة يتبعها الرجل فأمرته بأن يغلق النوافذ ويتأكد من إغلاق الأخريات . وانتظرت حتى قام بمهمته وأطفأ النور ثم ذهبا معا ، خرج صابر من تحت السرير ، ثم وقف بحذر ، فى ظلام حالك . الظلام ضرب من الاختناق ، وضياع وعدم . ولبس القفاز بعناية . وجال بيده متحسسا حتى عثر على الترابيزة ثم تناول القضيب وشد عليه بقوة . وارتد إلى موقفه الأول ثم جلس على حافة الفراش . اختفت الدنيا ، لا شىء سوى ملمس الفراش ورائحة الصمت الآخذ فى الاستفحال . لا مفر فيجب أن تهوى الضربة بإحكام . والانتصار بضربة واحدة خير من العناء والصبر . والانتظار العابث ، والبحث الضائع . وحب إلهام سحابة شفافة

ولكنها أشق من القتل . ومديح الشحاذ يترامى فهو لم يأو إلى جحره بعد . نواء ضائع كالإعلان ، وثروة الأم المصادرة . ومتى تعانق كريمة بحرارة وأمان ؟. وذوبان الأعصاب فى الظلام محنة ولكن وراءك إرادة من حديد وقلب ينطلق إلى مراده الجهنمى كالشهاب .

وهذا صوت على سريقوس فوق السطح يغنى :

أيـــام بنشرب عسل وايـــام بنشرب خل

ثم لا شىء إلا الظلام وصوت الصمت .

وأخيرا سمع المفتاح وهو يدار فى القفل فهبط إلى الأرض وزحف تحت السرير . وسمع وقع أقدام قادمة ، ثم فتح باب الحجرة وسطع النور . انكمش فى اضطراب وتوثب . ورأى فوق الأرض ست أقدام . وارتفع صوت عم خليل قائلا :

ــ اذهب يا على ولا تنس أن تحضر السباك .

ذهبت قدمان . وجلس عم خليل على حافة الفراش فاستقرت على بعد ذراع من عينيه . وقال :

ــ سأقابله غدا ولن أقبل مزيدا من المساومة .

ــ هذا هو الرأى .

ــ رجل دنىء ، رأى الموت أربع مرات بعينيه ولم يتعلم !

ــ ربنا يطول عمرك .

وساد صمت فتساءل محمد الساوى :

ــ هل أفوتك بعافية ؟.

تأوه الرجل قائلا :

ــ كلا ظهرى يؤلمنى وعندى صداع .

إلى متى يبقيه معه ؟. هل يبيت معه ليلته ؟، سرت فى جسده رجفة من القلق . وإذا بالرجل يقيم الصلاة وهو جالس ، ثم يسترسل فى صوت مسموع :

استقبلت قبلتك

واترجيت عفوك ورحمتك

يا أرحم الراحمين أدخلنى جنتك

وواصل صلاته حتى السلام ، ثم قال :

ـــ ساعدنى فى خلع العباءة والحذاء يا محمد .

وبعد هنيهة قال :

ـــ ناولنى زجاجة المنوم من الدرج .

أين هذا الدرج يا ترى ؟. إن كان فى الصوان فقد انكشفت كذبة السرقة المدبرة . وانتظر وكأنه يتوقع انفجار قنبلة وهو يتابع صفيرها . ولكنه سمع الرجل وهو يرشف الماء ، ثم شعر به وهو يستلقى فوق الفراش . وسمعه يقول :

ـــ لن أستطيع القيام لإغلاق الباب وراءك ، أغلقه من الخارج ، وافتحه فى ميعاد الصباح ، مع السلامة .

حياه الساوى وأطفأ النور ثم أضاء المصباح السهارى وانصرف ، سوف يفتح الباب صباحا فيجد صاحبه جثة . كيف دخل القاتل ؟. كيف يذهب عقب الجريمة ؟. آه العقل مشتت . المهم التنفيذ لا تخمين آراء المحققين . ضربات قلبك تشوش عليك أفكارك . ورغم الدراسة السابقة يجد فى كل لحظة جديد . هل ينام قبل أن تنفجر أعصابك ؟.

وارتفع الشخير . كشخير أمك فى الليلة الأخيرة . والكفن كعود جاف . وبكاء السماء من زجاج الشرفة بالنبى دانيال . قطب فى تصميم طاردا خواطر الأحزان ثم زحف . زحف حتى خرج جسمه كله . وقف بحذر شديد قابضا على القضيب . رأى الرجل مختفيا من الرأس إلى القدم تحت الغطاء . رأى رأسه المغطى بارزا تحت الوسادة . ارتاح جدا لاختفائه وانبعثت فيه جرأة جديدة . اقترب من الفراش خطوة رافعا القضيب إلى أقصى ذراعه . وإذا بالرجل يزيح طرف الغطاء عن وجهه ويميله إلى ناحيته . ارتعد صابر وتسمر جسمه وذراعه

المرفوعة . وفتح الرجل عينيه فالتقيا بعينيه . ولم يبد منه ما يدل على أنه رآه أو انذعر . أفاق صابر من الصدمة بجنون . هوى بيده بكل قوة على الرأس فوق الطاقية ، وتراجع ذاهلا عن تكرار الضربة . ند عن الرجل صوت لم يتبين حقيقته وعبثا حاول فيما بعد تحديده .. تأوه .. صرخة .. شخير .. حشرجة ؟. وانتفض الجسم تحت الغطاء انتفاضة خفيفة فيما رأى ثم همد . وبسرعة حول عنه عينيه فاستقرتا على النافذة . لم يفكر أبدا فى التأكد من موته . اقترب من النافذة ثم فتحها . ومرق منها معتمدا على ساعديه . ردها وراءه وازدرد ريقا جافا لأول مرة . آه .. هل القضيب ملطخ بالدم ؟. والسطح المجاور خال كما توقع . كم الساعة يا ترى ؟. وعبر السور . لماذا لم يغسل القضيب فى الحمام ؟. هل يتخلص منه هنا ؟. جنون . هل يرميه فى الجهة الخلفية للعمارة ؟. جنون وسخف وثمة أصوات آدمية آتية من أسفل السلم . أطل من فوق الدرابزين فرأى الدور الثالث غارقا فى الظلام ، ولكن نورا ينبعث من شقة فى الدور الثانى انعكس على الدرابزين والجدار وراءه . ومسح القضيب بفردة القفاز اليسرى . ثم قبض عليه بها ، وهبط السلم . مر أمام الشقة المفتوحة لا يلوى على شى ، ثم غادر الشقة رجلان أو ثلاثة فنزلوا وراءه فتباطأ حتى أدركوه ثم فاتوه فهبط وراءهم حتى الدهليز ، وغادر العمارة كأنه واحد منهم وقد لمح البواب جالسا فى حجرته الصغيرة وراء الباب . فى الطريق شهق بعمق ثم زفر . هل عرفه أحد ؟. هل رأى أحد القضيب فى يده ؟. هل لوث الدم بدلته ؟. ورأى تاكسى عند الطوار المقابل ولكنه خاف إن عبر الطريق مباشرة أن يراه أحد من الفندق ، فتوغل فى الشارع ، ثم عبر من بعيد إلى الجانب الآخر فرجع تحت البواكى صوب موقف التاكس . وصادف رجوعه قيام الشحاذ وسيره نحوه متلمسا طريقه بعصاه ، اضطر أن يقف على بعد مترين من التاكس حتى يمر الرجل فرآه لأول مرة بوضوح على ضوء مصباح . وشد ما أثار اشمئزازه لحد الغثيان . وجه نحيل ضائع اللون والمعالم فى لحية متلبدة بالقذارة ، وعظام بارزة

ووجنتان غائرتان وأنف مجدوع ، ورأس مغطى بطاقية سوداء يحجب مقدمها حاجبيه ، تدمع تحتها عينان دمويتان مشدودتان إلى أسفل ، فمن أين جاءه الصوت اللطيف الذى يغنى بالمديح ؟. كتم أنفاسه كيلا يشم رائحته وهو يمضى أمامه ، وتقلص وجهه فى تقزز ونفورَ حتى اختفى عن ناظريه ، ثم اندفع نحو التاكسى آمرا السائق بالذهاب إلى ناحية من النيل بها مرسى قوارب ، أى إنسان يعطف على هذا الشحاذ !. ولكن هل لمحه أحد وهو يغادر العمارة ؟. القفاز والقضيب هل رآهما أحد ؟. وسائق التاكس هل ينقلب شاهد إثبات غدا ؟. التاكس لا يريد أن ينطلق . السائق يزعجه بتعليقات غير مفهومة .

— أليس كذلك ؟

— هه !.

— وبدل الجنون أقول لنفسى الصبر طيب .

ليس أفضل من السكوت إلا الجنون . وشاطئ النيل راقد فى ظلام فمن يرى القضيب أو القفاز أو الدم ؟. والتجديف فى هذه الساعة من السنة غريب ولكنه سلوك عادى جدا إذا قيس بغيره . الآن تتخلص من القضيب والقفاز وتغسل يديك . اغسلهما جيدا فى الأمواج الثقيلة النابعة من الليل . وبمجرد التفكير فى الراحة زحف الإعياء كالنوم . وترك القاربَ للتيار . ليس فوق البر من شىء يهم ، وثمة لذة غريبة فى إغماض العين والاستسلام للتيار . وفى محو التفكير والذاكرة . ولكن التقاء العينين تحت المصباح السهارى لا ينسى . والصوت الذى انبعث ما كنهه ؟. وما يسيل من عين الشحاذ دم أم دمع ؟. حتى المطاردة الآن لا تهم . ولكن أين مضى بك التيار ؟.

وفجأة انطبقت السماء على الأرض . وثب من الفزع فتمايل به القارب . وفى اللحظة التالية أدرك أنها صفارة قاطرة بحرية انفجرت بغلظها المحطم لأركان الجو . وتتابعت أمواج قوية فرقص القارب . وتناول المجدافين وجدف بقوة راجعا إلى المرسى . ولم ير فى السماء نجما واحدا فتذكر الشتاء وسرعان ما سرت

فى جسده قشعريرة البرد . ومشى فى الجزيرة بسرعة وقوة دفعا لبرودة الجو حتى عبر جسر النيل . وعند إشارة المرور لمح سيارة كبيرة واقفة ، ورأى داخلها رجلا جذب انتباهه من النظرة الأولى . كهل فخم ، ولكن هذا الوجه كم أنه محتمل أن ..!. وانفتح الطريق وتحركت السيارة فصاح بأعلى صوته :

— سيد الرحيمى !

وجرى وراء السيارة بأقصى سرعته ولكن المسافة الفاصلة بينهما اتسعت إلى غير نهاية وسرعان ما اختفت السيارة . حتى رقمها لم يره . توقف عن الجرى وهو يلهث . هو الرحيمى !. صاحب الصورة بعد ثلاثين عاما . ولو تقدم خطوات أسرع لأمكنه الوثوب على مؤخرة السيارة . ولكنه لم يعرف الرقم ولا الماركة . والحسرة غير مجدية وهى فى حالته مضحكة أيضا . وكيف يثق فى عينيه وهو لم يشعر بالبرد فوق سطح النيل !. وماذا يعنى الرحيمى له بعد ما كان ؟ الأمل الوحيد الباقى له هو : كريمة . هى الآن سهرانة تفكر . وتربطهما حقيقة واحدة رغم البعد . ومع ذلك كم يحن إلى لقاء إلهام ليعترف لها بكل شىء . وأنبأته ساعة الميدان بانتصاف الليل فقرر العودة إلى الفندق فى ميعاده المألوف رغم كراهيته للفكرة . ارتعد وهو يمر أمام العمارة . وتذكر الشحاذ بصورته البشعة فتساءل عن المأوى الذى يؤويه . ووجد عم محمد الساوى جالسا مكان عم خليل لم يذهب بعد للنوم . وتذكر أنه لم يأكل ولم يشرب وأنه كان ينبغى أن يشرب قليلا من الكونياك . ورفض فكرة الرجوع خشية ألا يحسن تفسيرها غدا !.

وقال له العجوز :

— التعب واضح فى وجهك !.

فأجاب بحذر :

— الدنيا برد فى الخارج ..

فابتسم الرجل قائلا :

— سألت عنك مرة أخرى .

ـــ من ؟!.

ـــ أنت أدرى ؟!.

إلهام !.. خرافة كالرحيمى .

ـــ ليس وراء بلدكم إلا التعب .

ـــ الحياة كلها تعب ، ولكن أما من جديد ؟

أدرك أنه يسأل عن الرحيمى فقال وهو يمضى محييا :

ـــ سأبحث عنه غدا فى القرافة !.

١١

غادر الفراش فى السادسة صباحا . ترى هل ذاقت النوم عيناه ؟. إنه لا يذكر من ليله إلا السهاد . ولكن مهلا لقد حلم .

أجل لا يذكر من الحلم سوى منظر عراك نشب بينه وبين كريمة أمام عم خليل الذى لم يكترث لما يجرى أمامه ، ولكن ذلك دليل كاف على أنه نام ولو بعض الوقت . والجو بارد حقا ولكن فلتكن رجلا إلى النهاية وإلا فما معنى مباهاتك بأنك مجرم من سلالة مجرمين !.

وأضاء المصباح فهاله أن يرى فردة القفاز فى يمناه !. حملق فيها بذهول وفزع . إذن رمى بالقضيب والفردة اليسرى ونسى هذه !. عاد بها إلى شاطئ النيل . وسار فى الجزيرة ، وجرى وراء السيارة الكبيرة ، وقطع الشارع ، ولوح بها للساوى وهو يحدثه . حملق فيها بفزع متزايد . بقعة من الدم انداحت وسط راحتها البنية . ماذا فعلت هذه البقعة !. عليك أن تختبر كل شىء ، وتفحص الفراش والغطاء والملاءة ، وأرض الغرفة ، ثم الحذاء والجوارب والبدلة والقميص والمنديل ، كل شىء بعناية ، ولكنه لم يطمئن لشىء ، ودار رأسه بالوساوس فعيناه لا تريان شيئا أما أعين شياطين الأمن فلن يخفى عليها شىء ، وقرر أن يتخلص من القفاز فمضى به ـــ مع الفوطة والصابونة ـــ إلى الحمام ، مخفيا فى جيب البيجاما مقصه الصغير ، وراح يقطعه ، ويرمى بكل قطعة على حدة ثم يشد السيفون . وهو يفعل ذلك سقط منه مرة على الأرض ، فالتقطه وواصل عمله ، ثم غسل وجهه وغادر الحمام ، وفى الطرقة رأى على سريقوس أمامه فحياه الرجل قائلا :

ـــ صباح الخير يا سى صابر ، استيقظت اليوم مبكرا .

اللعنة !. ماذا جاء بك إلى طريقى !. ساكن الحجرة رقم ١٣ استيقظ مبكرا

على غير عادته ، هذا الشيء الوحيد غير العادى يا حضرة الضابط . اللعنة . بادرة سوء ولا شك . وهل غسل الأرض عند موضع سقوط القفاز ؟. اللعين دخل الحمام !. ولما دخلت الحمام عقب خروجه منه رأيت أثرا يشبه الدم عند البالوعة . ولم يدخل حجرته ولم تفارق عيناه باب الحمام . وفتح الباب وخرج على سريقوس فلما رآه بموقفه سأله :

— أى خدمة يا سى صابر ؟

فذهب إلى الحمام دون أن يلتفت إليه ، وتفحص موضع سقوط القفاز جيدا ثم غادره ، ولما رأى على سريقوس فى الخارج قال كالمعتذر :

— نسيت الصابونة !.

فابتسم الرجل قائلا :

— كانت بيسراك وأنت ذاهب !

هذه هى عاقبة الاستيقاظ مبكرا قبل أن يشبع الواحد من النوم ، زياط ملعون أيقظنى بعد الفجر وعبثا حاولت النوم من جديد ..

ودخل الحجرة وهو يستأنف ضحكته . بداية سيئة ولكن لا داعى للمبالغة فى الخوف . وأعاد تفحص ملابسه وهو يرتديها ، ورفع رأسه نحو السقف متخيلا صورة عم خليل فوق فراشه . وقال لنفسه — رغم قشعريرة تقلص بها جسده — إن حوادث القتل تقع فى كل يوم وبلا حصر ، ومجرد التفكير فى السفر إلى الإسكندرية جنون . ولما انتهى من ارتداء بدلته نظر فيما حوله متسائلا ترى هل نسى شيئا ؟. إنه غير مطمئن إلى بدلته رغم إعادة الفحص وسوف يكتشف الشياطين فى نسيجها ما لا يخطر ببال . وخطر له أن يرتدى أخرى ويذهب بها إلى مصبغة لغسلها بالبخار ، ولكن فيم يلفها ؟، وألا يلفت ذلك بعض الأنظار ؟، ألا تصير موقع تحقيق بعد ظهر اليوم ؟. وشعر بضيق ويأس وبخاصة لأنه رسم أن يغادر الفندق قبل اكتشاف الجريمة . ورأى أن ذلك أهم من البدلة نفسها . وألقى نظرة أخرى على الحجرة وهو يقول لها « لا تخونينى » ثم ذهب . رأى عم

محمد الساوى وهو يصلى الصبح فجلس فى الاستراحة . مع نفر قليل من النزلاء . وتناول فطورا خفيفا ، وفى أثناء ذلك جاءه على سريقوس مسرعا وهو يقول :

ـــ نسيت هذه يا سى صابر .

حافظة نقوده !. سقطت بلا شك وهو يتفحص الجاكتة ، وراجع محتوياتها ثم قال له :

ـــ أشكرك جدا يا عم على ..

ونفحه بعشرة قروش فقال الرجل وهو يمضى عنه :

ـــ وجدتها عند رجل السرير .

الأخطاء التى اكتشفت كثيرة حقا فما عدد الأخطاء التى لم تكتشف ؟. والقوة العمياء التى تجردك من ملابسك قطعة وراء قطعة سترمى بك فى النهاية عاريا كما ولدتك أمك . وأمك هى القاتل الحقيقى لعم خليل أبو النجا ، وما أشبه شخيرها بشخيرة فى الليلة الأخيرة أما الصوت الذى ند عنه عقب الضربة القاتلة فقد مضى وانقضى . وضبط رجلا من الجالسين وهو يدارى ابتسامة ابتسمها لدى ملاحظته فأدرك أن شفتيه تفحصان أفكاره فأربكه الحرج . وكره المكان فغادره . وفى الخارج ترامى إليه الغناء المألوف كل يوم « طه زينة مديحى » فتذكر الصورة البشعة بتقزز ثم قال وهو يتجنب النظر ناحيته « من يدرى لعله سعيد بالغناء » . ويصعد عم محمد الساوى إلى السطح ويفتح باب الشقة ثم يطرق باب حجرة النوم .. عم خليل استيقظ ؟.. استيقظ يا عم خليل .. ويدفع الباب برفق ويختلس من الداخل نظرة .. عم خليل .. .. رباه .. يا ألطاف الله . أغيثونا .. يا على .. يا على .. يا هوه .. عم خليل قتل .. أغيثونا .. بوليس النجدة . قديما اختفت أمى فلم يعثر عليها أبى واختفى أبى فلم أعثر عليه . فليكن هذا الاختفاء الموفق نصيبى أيضا ، وإذا انجابت الغمة وطردها النسيان فتلق كريمة بين ذراعيك ومعها كل ما تعد به الحياة السعيدة المطمئنة . سار على غير

هدى تقوده الشوارع والمنعطفات . وكلما أجهده السير جلس على قهوة ليريح قدميه . لم ير ولم يسمع شيئا . ومرة ارتفع رأسه إلى الأفق فوق مبنى القضاء العالى فرأى مظلة كبيرة من السحب ذات أرضية بيضاء صافية تنتشر عليها قطعان من السحاب الداكنة فاستيقظ قائلا : « هذه زفرة من الإسكندرية » وتحرك فى القلب الشجن ، ثم مضى بالعين التى لا ترى والأذن التى لا تسمع ..وطيلة الوقت وهو يشعر بحاجة حارة إلى لقاء إلهام ، فلما فات النهار منتصفه مضى إلى فتركوان وهو ينظر إلى كل شيء بغرابة . ولدى رؤية الفتاة مقبلة فاضت به رغبة مفاجئة فى الاعتراف . ولما رأته ومضت عيناها ثم صافحته وهى ترميه بنظرة زرقاء عاتبة :

— لماذا أصافحك ما دمت تقاطعنى ؟

وتفحصته باهتمام ثم استدركت :

— وأيضا لا تتكلم !

— استغرقتنى المشاغل وكنت وما زلت فى غاية التعب .

— ولا تليفون ؟.

— ولا تليفون ، فلنؤجل حديث ذلك لأشبع شوقى إليك .

وارتضيا الصمت وهما يتناولان الغداء ولكنه ظل يرنو إليها طيلة الوقت . ردد باطنه « طه زينة مديحى — صاحب الوجه المليح » وقال إن تصميمه على هذا اللقاء عجيب . وهو يبدو لا معنى له إلا أن يكون ملجأ مؤقتا فى العاصفة . وهى تبتسم رغم أنها صافحت يدا ملوثة بالدم . ورهبة الوداع تغرى بالدمع .

— أنت متعب حقا .

فقال بفتور :

— أمس رأيته !

فلمعت عيناها باهتمام شديد مدركة من يعنيه :

— أخوك ؟!

— سيد سيد الرحيمى .
— إذن قد انتهت مهمتك ؟
فقص عليها الحكاية فيما يشبه الضجر . فقالت :
— هناك احتمال كبير أن يكون هو .
— وثمة احتمال أن يكون غيره .
فتساءلت برجاء :
— متى تعتبر هذه المسألة منتهية ؟
— إنى أعتبرها كذلك .
— لكنك متعب حقا ؟
— مضت الأيام الأخيرة فى مقابلات متواصلة ومشاوير معقدة .
— أناس من طرف والدك ؟
— نعم .
وشربا العصير ، ثم تهيأت لنغمة جديدة مهدت لها بابتسامة حيية ثم تساءلت :
— ولا تجد وقتا للتفكير فى .
— بل أفكر فيك طول الوقت .
— ماذا قال لك التفكير ؟
متى تعترف لها بكل شىء وتعفى نفسك من الكذب ؟
— أنت لا تتكلم ، تحدثنا آخر مرة عن عمل جديد فى القاهرة !
آه .. أنت لا تفكر إلا فى الاعتراف وعما قليل ستنفجر .
— أجل ، لم أنس ذلك لحظة واحدة .
— رغم مشاغلك ؟
— رغم مشاغلى كلها .
— أما أنا فأدرس الموضوع من جميع نواحيه .

إنها آخر حصن للمقاومة فقال :

— إلهام أنا أحبك ، أحبك من كل قلبى ، ولكننى كذبت عليك .

رمقته بدهشة وهى تسأل :

— متى وكيف كذبت ؟

— كذبت عليك بدافع حبى نفسه .

— لا أفهم شيئا .

— قلت لك إنى أبحث عن أخى والحقيقة أنى أبحث عن أبى ؟

— أبوك !

— أجل ، أبى هو الذى أبحث عنه .

— كيف فقدته ؟.. أهى حكاية كحكايتى ؟

— كلا ، صدقت طول عمرى أنه ميت ، وفى الساعة الأخيرة من حياة أمى اعترفت لى بأنه حى ، وأن على أن أجده .

وهى تحدق فى وجهه طول الوقت :

— على أى حال ليس الأمر بذى بال .

— لكنى رجل مفلس لا أملك إلا جنيهات ، كانت أمى غنية جدا وكنت أعيش غيشة الوجهاء ، ثم ضاعت ثروة أمى لآخر مليم ، لم تترك لى سوى وثيقة زواجها وصورة أبى لأثبت بها بنوتى أمامه عندما أجده ، وعدا ذلك فإننى لا أصلح لشىء .

أثقل الوجوم عينيها الصافيتين . كيف كانت تكون حالها لو اعترف لها بسيرة أمه وماضيه على حقيقتهما ؟!.

— أقرأ الانزعاج فى وجهك !

— كلا ولكنها المفاجأة .

— أنا غير جدير بك ولن أغفر لنفسى خداعك .

تمتمت :

— إنى أفهم جيدا لماذا كذبت على .

— الأفظع من ذلك جعلتك تحبين شخصا غير جدير بحبك .

— وحبك أهو كاذب ؟

— أبدا ، مطلقا ، أحبك من كل قلبى .

وهى تتنهد :

— والحب هو الذى ردك إلى مصارحتى بالحقيقة ؟

— أجل هو ذلك .

— إذن فعذرك واضح !

— ولكنه يطالبنى أيضا بالابتعاد عنك .

وهى تزدرد ريقها :

— لكن بالله لماذا ؟

— مفلس ولا أهل لى ، ولا أصلح لشىء .

— الإفلاس لا يهم فهو حال مؤقتة ، والأهل لا يهمون فما حاجتنا إليهم ، ولكنك تصلح لأشياء كثيرة .

— أشك فى ذلك ، لا شهادة لى ولا علم ولا خبرة ولا عمل ، ولذلك فلا أمل لى إلا فى العثور على أبى .

— وهل يغنى أبوك عن كل شىء ؟

— أفهمتنى أمى أنه من الوجهاء وممن يشغلون المناصب الخطيرة .

فترددت لحظات ثم قالت :

— لكن الإعلان .. والاسم .. ودليل التليفون .. أعنى ..

— أجل ، لا أصدق الآن أنه من أصحاب المناصب فهم معروفون ، ولا من وجهاء القاهرة كذلك ، ولكن ذلك لا ينفى أن يكون من وجهاء هذا الإقليم أو ذاك ..

— ثم إنك لمحته أمس ؟

ــ ذلك ما خيل إلى ، ولكنى لم أعد أثق بشيء .

ــ وحتى متى تنتظر ؟

ــ يجب ألا أضيع وقتى فى البحث أو الانتظار .

ــ ثم ؟

ــ لا أدرى ، السبل مسدودة فى وجهى ، ولكن على أن أرجع إلى بلدى فأبحث عن أى عمل أو أنتحر ..

وهى تعض على شفتيها :

ــ وتقول إنك تحبنى !

ــ نعم .. بكل قلبى .

ــ وتفكر فى الذهاب أو الانتحار ؟

ــ السبل مسدودة لحد الاختناق .

ــ لكنك تحبنى .. وأنا أيضا أحبك .

قال بوجه متقلص من الانفعال والحزن :

ــ أنا لا أصلح لشيء فكيف أصلح لك ؟

ــ الصبر ، لن أتخلى عنك .

ــ لكن ما الفائدة ، كنت أحلم بالعثور على أبى ولذلك أدخلتك فى حلمى بلا حساب .

ــ العمل !، هو الذى يحل مشكلتنا .

ــ قلت إننى لا أصلح لشيء .

ــ أعطنى فرصة للتفكير وسوف تسير الأمور كما نود .

والجريمة التى ارتكبت !، لا يجوز بحال أن تسير الأمور كما تود ، يجب أن يكون وقت ذلك قد فات . كيف لم يأت الاعتراف بالنتيجة المدمرة !. والضحك من الآن إلى نهاية العمر لن يكفى .

ــ لن تسير الأمور كما نود .

فقالت بحزم :

ــ أمهلني يوما أو يومين ، لا تتخذ أى قرار قبل الرجوع إلى ، أنا أعرف ما أريد ..

قل لها ماذا كانت أملك . قل لها ماذا فعلت أمس . قل لها إنك تزوجت من أخرى بوثيقة من دم . قل لها إنك تود أن تصرخ حتى تصدع أركان الأرض .

١٢

ها هم عساكر البوليس وها هى اللمة . كما تخيل تماما طيلة النهار . وإذن فقد انتهى الرجل واكتشفت الجريمة والبحث دائر عن المجرم ، ولا مفر من التقدم فأسكت هذه الرعدة وتمالك نفسك حتى الموت . لتنس النظرة الغائبة التى ألقاها عليك الرجل ، إلى الأبد . ولا تسل عن الصوت الذى ند عنه . والعودة إلى الفندق شاقة مرعبة كالاعتراف . حتىٰ الخطة التى نفذت نوقشت من جديد كأن لم تنفذ بعد . كان يجب أن تغادر الفندق قبل يوم الجريمة بأسبوع . لم يكن الشيطان نفسه ليفكر فيك ولكنك لن تجنى من الهلوسة إلا الحسرات . ومن يصدق أنه حتى فى غمرة هذا الفزع الشامل لا يكف صوت الشحاذ عن المديح !. وشق طريقه خلال المتطلعين حتى اعترضه عسكرى فقال بدهشة :

ـــ ماذا حدث ؟، أنا من نزلاء الفندق .

وظهر عم محمد الساوى على عتبة الفندق بوجه شاحب استقرت فى صفحته صورة دميمة للفزع فأشار إليه قائلا بصوت لا يكاد يسمع :

ـــ دعه يدخل .

سأله بلهفة :

ـــ ماذا حدث يا عم محمد ؟

فأجاب الرجل ووجهه يتقلصٰ تقلص البكاء :

ـــ قتل عم خليل !

ـــ قتل !

ـــ وجد مقتولا فى فراشة لعنه الله على المجرمين .

رأى فى المدخل عساكر ومخبرين ، وفى مكان عم خليل جلس المحقق وإلى يمينه ـــ على كرسى كريمة المعتاد ـــ رجل آخر . وكان شاغل كرسى عم خليل عاكفا

على أوراق بين يديه وقد جلس وراء المكتب من الناحية الأخرى أحد النزلاء . وذكره الجالس مكان عم خليل بصورة أبيه المتخيلة . وأوشك اهتمام مفاجئ أن ينتزعه من دوامة الاضطراب التى اجتاحته ولكنه ما لبث أن تبين شباب الرجل النسبى واختلافه عن الصورة عند التحقق فوضح له سخف مخيلته . هل يقف أو يمضى إلى حجرته ؟. وبعد تردد قصير شرع فى السير إلى الأمام ولكن الجالس مكان كريمة أوقفه بإشارة من يده قائلا :

— انتظر من فضلك فى الاستراحة .

ذهب إلى الركن الأيمن حيث جلس بعض النزلاء فجلس معهم وهو يسأل :

— ماذا حدث ؟

— وجد عم خليل مقتولا .

— ولكن كيف ؟

— من يدرى !، وجاء المحققون ، وحجزنا جميعا للتحقيق ، وحصلت المعاينة كما حصل تفتيش شامل .

وارتفع صوت بكاء مكتوم جذب عينيه إلى ركن الاستراحة الأيسر فرأى كريمة !. رآها جالسة بين امرأة عجوز فى السبعين ورجل يكبرها بأعوام . كيف لم ينظر صوبها وهو داخل ؟. وماذا يجدر به أن يفعل ؟. وبعد تردد نهض إليها ثم قال بصوت خافت :

— شدى حيلك ، البقية فى حياتك .

لم تنبس بكلمة وظلت مخفية وجهها بين يديها فرجع إلى مجلسه وهو يهز رأسه أسفا . ترى هل أخطأ أو أصاب بهذه الحركة ؟. وهل يمكن أن تشبه المرأة العجوز أم بنت الأنفوشى ؟. وماذا يدور فى أذهان المحققين ؟. هل سألوا عن ساكن الحجرة رقم ١٢ ؟. هل بدأت التحريات عنه ؟. هل يفهمون المجرمين كما يفهم هو بنات الليل ؟. وكرههم جميعا لدرجة الموت . ونظر إلى الجالسين متسائلا :

— وبعد ؟

ـــ أنت لم تنتظر إلا دقائق ونحن على هذا الحال منذ الصباح .

ـــ هل سألوا النزلاء الآخرين ؟

ـــ نعم ، وتركوهم يذهبون ، ولم يأت دورنا بعد ، وسألوا الزوجة وأمها وخالها .

ـــ لكنها لم تكن موجودة فيما أعلم ..

وندم على تسرعه ، ولكن رجلا قال :

ـــ ولو !، وحصلت مفاجآت ففى الحجرة رقم ٦ ضبطت كمية ضخمة من المخدرات فقبض على صاحبها ، وفى الحجرة رقم ٢ عثروا على لص محترف ..

ـــ آه .. لعله ..

ـــ هذا جائز ، كل شيء يتوقف على سبب الجريمة .

ـــ لا شك أنه السرقة ..

وندم على تسرعه مرة أخرى ، يحسن به أن يتجنب الأخطاء . هل وجدوا دليلا أو شبه دليل فى حجرة عم خليل أو فى حجرته ؟.

لا يبدو أن أحدا منهم يهتم به . وكم يود أن يخلو ولو دقائق إلى كريمة . احذر أن تنظر نحوها . لديها بلا شك ما يستحق أن تخبره به . ليس الأمر كما تخيل . أجل ليس الأمر كما تخيل . اللعنة .. متى يخرس الشحاذ البشع ؟. فى مثل هذا الوقت من كل شهر أذهب لزيارة أمى . سرقت نقود وحلى . أغلق على سريقوس النوافذ أمام عينى ثم أغلقت الشقة بنفسى .. لا .. لا أعرف له أعداء . لماذا ذكرنى هذا الرجل بصورة أبى ؟!.

وإذا برجل يقول :

ـــ ومع ذلك فنحن أبرياء فكيف يكون اضطراب المذنبين !

ـــ وأكثر من هذا فمجرد خطأ فى التعبير قد يجلب متاعب لا حد لها .

ـــ ولكن لم يشنق برىء قط .

ـــ أووه ..

ولكن قد ينجو مذنب . أمك والرجل الهارب إلى ليبيا . والعودة إلى الفندق محض جنون فخطة أخرى هى ما كان يلزمك . وكالقضاء اعترضت مسعاك الخائب كريمة . وحاجتك إلى أبيك لم تنقض كما توهمت ولكن الخطر يزيدها إلحاحا .

واستدعوا تباعا . وأخيرا وجد نفسه جالسا أمام المحقق .

كرهه من أعماقه ثم صمم على الانتصار عليه .

ـــ صابر سيد الرحيمى .

وقدم بطاقته فتصفحها الرجل بعناية :

ـــ نزلت فى هذا الفندق منذ شهر تقريبا وهو مسجل فى الدفتر .

كلا ، لا يشبه الأب فى شيء وإن يكن ذكره به عند النظرة الأولى .

ـــ استيقظت كالعادة فارتديت ملابسي ونزلت إلى الاستراحة ثم تناولت الفطور وذهبت .

ـــ ليس كالعادة تماما ، استيقظت مبكرا .

ـــ لا أستيقظ عادة فى وقت محدد ، وقد استيقظت مبكرا أكثر من مرة .

ـــ قال الخادم إنك استيقظت هذا الصباح مبكرا بخلاف عادتك .

ـــ لعله لم يرنى فى المرات السابقة .

ـــ ألم تسمع شيئا غير مألوف فى الليل ؟

ـــ كلا ، نمت عقب عودتى فلم أستيقظ إلا فى الصبح .

ـــ ألم يلفت نظرك شيء عقب استيقاظك ؟

ـــ كلا .

ـــ متى رأيت الخادم على سريقوس ؟

ـــ عند خروجى من الحمام مباشرة .

ـــ ألم تلاحظ عليه شيئا ؟

ـــ كلا ، كان كعادته كل يوم .

ـــ وأنت ألم يحدث لك ما يستحق الذكر ؟

ـــ كلا

ـــ ألم تنس حافظة نقودك ؟

ـــ بلى ، حدث هذا حقا ، وأتانى بها على سريقوس فى الاستراحة

ـــ وكيف كان وقع ذلك فى نفسك ؟

ـــ سررت بطبيعة الحال .

ـــ وماذا أيضا ؟

ـــ لا شيء .

ـــ ألم تدهشك أمانته ؟

ـــ ربما ، لا أدرى بالضبط ، ولعلى لم أفكر فى ذلك .

ـــ من الطبيعى جدا أن تفكر فى ذلك .

ـــ لعلى دهشت بعض الشيء .

ـــ بعض الشيء ؟

ـــ أعنى دهشة عادية .

ـــ ما رأيك فى مدى أمانته ؟

ـــ لم ألاحظ عليه ما يسوء .

ـــ وأين أمضيت الوقت فيما بين ذهابك وإيابك ؟

ـــ أتجول هنا وهناك كيفما اتفق .

ـــ بلا عمل وهذا مفهوم من البطاقة . ولكن بلا أصدقاء ؟

ـــ لا أصدقاء لى هنا .

ـــ وأمس متى غادرت الفندق ؟

ـــ حوالى العاشرة صباحا .

ـــ ومتى رجعت إليه ؟

ـــ عند منتصف الليل .

— لم ترجع فى أثناء النهار كما فعلت اليوم ؟
— كلا .
— وهل سبق لك أن فعلت ذلك ؟
كيف خرقت مألوف سلوكك أمس خلافا للخطة ؟!
— مرة أو مرتين ؟
— لا يتذكر أحد هنا ذلك .
— ولكننى أتذكره !
— مرة أو مرتان ؟
— الأرجح مرتان !
— وكيف تقضى هذا اليوم عادة ؟
— فى التجول وأنا رجل غريب وكل مكان فى المدينة بالنسبة إلى جديد .
— وماذا وجدت عند عودتك ؟
— قابلت عم محمد الساوى فى هذا المكان ، وعلى سريقوس أمام باب حجرتى .
— كيف وجدته ؟
— سألنى إن كنت فى حاجة إلى خدمة ثم ذهب .
— ألم يصادفك أحد من النزلاء ؟.
— كلا .
— وكيف أمضيت أمس من الساعة العاشرة صباحا حتى منتصف الليل ؟
— تجولت فى الشوارع حتى موعد الغداء .
— وأين تناولت الغداء ؟
— فى بقالة الحرية بكلوت بك .
— مكان غريب بعض الشىء لرجل من الأعيان .
طفح بالكراهية للرجل وهو يقول :

ــ اهتديت إليه أول عهدى بالمدينة وأنا أتخبط فآنست إليه .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ مشيت على شاطئ النيل .

ــ فى هذا الجو ؟

وهو يضحك :

ــ أنا اسكندرانى .

ــ ثم ؟

فتركوان .. لا ، حتى لا يجر إلهام ، وفيلم مترو رأيته فى الإسكندرية .

ــ دخلت سينما مترو .

ــ متى ؟

ــ من الساعة السادسة .

ــ أى فيلم ؟

ــ فوق السحاب .

ــ وبعد التاسعة ؟

ــ تجولت كالعادة .. وركبت بص مصر الجديدة إلى نهاية الخط لمجرد قتل الوقت .

قتل !.. لماذا اخترت هذه الكلمة المرعدة !

ــ وأين تناولت العشاء ؟

آه .. حذار ..

ــ فى سينما مترو تناولت شطائر وحلوى .

ــ ألم تقابل أحدا ؟

ــ كلا .

ــ لم تعرف أحدا فى القاهرة ؟

ــ كلا .

ثم بعد لحظة تردد :

ـــ اتصلت بمدير الإعلانات بجريدة أبو الهول لعمل لكنها ليست علاقة معرفة بالمعنى المفهوم .

أخطأت ؟.. هل يقحم ذلك إلهام ؟..

ـــ لماذا انتقلت من الإسكندرية إلى القاهرة ؟

ـــ زيارة سائح ..

ـــ لعل هذا الفندق غير جدير بإقامة سائح من الأعيان ؟!

ـــ هو جدير بالناحية الاقتصادية .

ـــ يبدو أنك لست من الأغنياء !

ـــ بلى ..

ـــ ولا غاية لك من الزيارة إلا السياحة ؟

الحلقة تضيق . والكذب غير مجد فى هذه النقطة . وأنت لم تفكر فى هذه الأسئلة عند وضع الخطة .

ـــ ولدى مهمة خاصة .

ـــ أمن الممكن أن آخذ عنها فكرة ؟

ـــ مهمة عائلية .

ـــ حدثنى عن أملاكك ؟

ـــ مجرد نقود ..

ـــ لا عقار ولا أطيان ؟

ـــ مجرد نقود ..

ـــ ومحل إقامتك بالإسكندرية كما هو فى البطاقة أم تغير ؟

آه . تحريات . النبى دانيال . الكنار الليلى . بسيمة عمران . سوف تطاردك الشبهات بالوراثة .

ـــ كما هو بالبطاقة .

ـــ وأموالك فى أى بنك ؟

ـــ بنك ؟

ـــ فى أى بنك تودع أموالك ؟

ـــ ليست فى أى بنك ..

ـــ أين تودعها ؟

ـــ فى .. فى جيبى .

ـــ جيبك ؟!، ألا تخاف عليها السرقة ؟

أجاب بيأس وحقد مكتوم :

ـــ لم يبق منها إلا القليل ..

ـــ ولكن فى بطاقتك ما يدل على أنك من ذوى الأملاك .

ـــ كنت كذلك ، أعنى قبل إفلاسى ..

ـــ وماذا أعددت لمستقبلك ؟

لا تتردد طويلا . سأتحداك بالصدق . أو رغم الصدق .

ـــ كنت أبحث عن أبى ، وهذا هو مستقبلى .

ـــ تبحث عن أبيك ؟

ـــ أجل ، انفصلت عنه وأنا فى المهد . ولذلك قصة عائلية لا أهمية لذكرها ، ولما أفلست لم أجد بدا من البحث عنه .

ـــ أليس لك أى فكرة عن مكانه ؟

ـــ كلا ، والإعلان فى الصحف هو آخر ما عمدت إليه من وسائل البحث .

ـــ ولعل ذلك هو السبب الحقيقى فى انتقالك إلى القاهرة ؟

ـــ لعله !

ـــ وحتى متى تكفيك نقودك ؟

ـــ شهر على الأكثر !

ـــ تسمح ؟

أعطاه المحفظة بوجه يحمار ويحتقن ثم استردها بوجه عابس .

— وإذا نفدت نقودك ؟.

— شرعت فى البحث عن عمل ..

— ما هى مؤهلاتك ؟

— لا مؤهلات !

— أى نوع من العمل ؟

— عمل تجارى .

— هل تظن البحث سهلا ؟

— لى أصدقاء فى الإسكندرية ، ولن أجد صعوبة فى الحصول على عمل .

— أأنت مدين للفندق ؟

— كلا ، ولقد دفعت أجرة هذا الأسبوع مقدما .

— وكيف اهتديت إلى هذا الفندق ؟

— صادفته وأنا أبحث عن فندق رخيص .

— ألم تكن تعرف فيه أحدا من قبل ؟

— كلا ..

— ولكنك عرفت فيه الكثيرين ولا شك ؟

— عم محمد الساوى وعلى سريقوس ..

— وعم خليل .. أعنى المرحوم خليل أبو النجا ؟

— طبعا ..

— ماذا ترك فى نفسك من أثر ؟

— رجل عجوز جدا وطيب جدا ..

— ومع ذلك فقد وجد من قتله بلا رحمة .

— أمر محزن جدا ..

— أكنت تعرف أين يقيم ؟

اللعنة والمقت ولكن حذار من الكذب .

— فى شقة فوق السطح فيما أظن ..

— لست متأكدا ؟

— كلا ..

— كيف عرفت ذلك ؟

— على سريقوس أخبرنى ..

— أم أنك أنت الذى سألته ؟

— ربما .

— ترى لم سألته ؟

— لا أذكر الآن بالضبط ولكن العادة جرت بيننا بالدردشة كلما جاءنى لخدمة ما ..

— ألم توجه إليه أسئلة أخرى ؟

خفق قلبه بعنف أليم وهو يُجيب :

— ربما ، لا أذكر سؤالا على وجه التحديد ، كانت مجرد ثرثرة .

وشعر بأنه يدفع إلى شر يصعب التخلص من عواقبه ولكن الرجل سأل :

— حتى متى تبقى فى القاهرة ؟

— حتى أعثر على أبى أو أجد عملا أو تنفد نقودى .

أشعل الرجل سيجارة فى صمت معذب ، وتفكر مليا ، ثم سأله :

— أليس عندك أقوال أخرى قد تفيد التحقيق ؟

— كلا ..

— قد نحتاج إليك فيما بعد فلا تسافر قبل أن تخطرنا ..

— بكل سرور يا فندم ..

لم تكن خطة كاملة . هى خطة بلهاء . ومحاولة الهرب جنون ، وسوف ترصدك عين لا تغمض . وعليك أن تستعيد كل سؤال وكل جواب لتعرف حقيقة مركزك.

١٣

مركزك غامض كالموت . غير بعيد أن تكون الآن محور بحث وتحر . وغير بعيد أن تكون الآن هدفا لعين أو أكثر . ولن تدرى بما يدور حولك . كعم خليل قبل أن تهوى عليه ضربتك . حذار أن تأتى حركة مريبة واحدة . الفندق خير منك فقد استعاد هدوءه . رائحة الموت طردت كثيرين من نزلائه ولكن غيرهم يجيئون . والاستراحة باردة برود القبر وليس فى الجرائد اليوم من جديد وها أنت تقرأ الجريدة كبقية الناس . ها هم يعودون إلى أحاديث القطن والعملة والحرب . والهواء يصفر فى الخارج كالعويل والشحاذ يرتفع إنشاده مضجرا سقيما فيا لإلحاح الشحاذين !.

ولفت سمعه وقع أقدام فى مدخل الفندق فرأى عم محمد الساوى واقفا يستقبل كريمة . انتفض باطنه . وجلست المرأة وأمها العجوز أمام الرجل . أجاءت لتتسلم إدارة الفندق . هل تلتقى عيناهما الآن أو بعد لحظات ؟. حضورها رد إليك روحك الهاربة فمتى تغفل عنا العيون . سوف تبلغك رسالة بطريقة ما وليست الرحمة ببعيدة . وهى فى السواد أشد إثارة وما أحوجك إلى العزاء الساخن . ويدور بينها وبين الرجل حديث ترى ما أهميته غير الخافية ؟. وسمع عم محمد الساوى وهو يقول :

— ولا أدرى متى يسمح بدخول الشقة ..

تود أن تعرف مقرها ولكن من الجنون أن تتبعها . كيف فاتك أن تسألها عن عنوان أمها وأنتما تضعان الخطة الكاملة ؟. يجب أن تفكر فى الاتصال بك تليفونيا . وأن تذكر حاجتك الماسة إلى النقود .

— تليفون يا سى صابر .

آه .. ماذا يريد التليفون . هل يحسن الرحيمى فن السخرية . تناول

السماعة بيسراه وهو يمد يمناه إلى المرأة قائلا :

ـــ أكرر العزاء يا هانم .

تلقت يده شاكرة دون أن ترفع إليه عينيها . وجعل ظهره للساوى وعينيه لها طول المحادثة .

ـــ أنا إلهام .

لمَ لم تكن الرحيمى . ولمَ كان هذا الفندق بالذات . أجاب :

ـــ أهلا .

ـــ أأنت بخير ؟

ـــ بخير .

ـــ لم تحضر أمس .

ـــ آسف ، بعض التعب .

ـــ فلنؤجل الحساب ولكنك ستحضر اليوم ؟

ـــ ليس اليوم ، عندما أشفى من الزكام .

ـــ لن أضايقك ، أنت تعرف المكان والزمان ، إلى اللقاء .

ـــ إلى اللقاء .

وأغلقت الخط ولكنه أبقى السماعة على أذنه كأنما الحديث ما زال متصلا . وظل ينظر إلى كريمة حتى صاد عينيها فقال :

ـــ يجب أن تتصلى بى بأى وسيلة ، بالتليفون على سبيل المثال .

حولت عنه عينيها ولكن خيل إليه أنها فهمت لعبته . قال :

ـــ أريد أن أعرف أشياء كثيرة ، لا شك أنك تدركين موقفى تماما ، لا بد من التفاهم بوسيلة ما ، ولا تنسى أن نقودى تنفد بسرعة ..

رمقته بنظرة سريعة محذرة فقال :

ـــ إنى مدرك تماما لجميع المصاعب ولكنك لن تعدمى حيلة ذكية .

عاد إلى مجلسه مضطربا ولكنه ظفر بشىء من الارتياح . وما لبثت كريمة أن

ذهبت متبوعة بأمها . واقتحمه إحساس غامض بأنها تختفى إلى الأبد . وقال إنه بدونها جريمة بلا هدف . ولبث فى الاستراحة على أمل أن تتصل به بالتليفون . ومر وقت عقيم . وترك إختفاؤها وراءه جحيما من الرعب ، وخلت الاستراحة من النزلاء فرأى عم محمد ينظر نحوه فتبادلا تحية مجاملة . وسأله الرجل .

ــ ماذا يبقيك وحدك ؟

ــ الزكام !، تناولت أسبرينه وسأذهب إذا شعرت بتحسن .

وهو ينتقل انتقل إلى الكرسى التى جلست عليه كريمة من قبل . ترى أين يقبع المخبر ؟. وقال :

ــ كم خيب هذا التليفون أملى .

ــ آه .. الغائب سره معه .

فرنا إليه برثاء قائلا :

ــ الحق أنك تعرضت لتجربة قاسية .

تقلص وجه العجوز وهو يقول :

ــ لا أراك الله ما رأيت !

ــ لا شك ، أنه كان منظرا فظيعا ، أنا لم أر ميتا قط ، حتى جثة أمى أغمضت عينى وأنا أقرأ عليها الفاتحة ..

ــ ومع ذلك فالميتة شيء والقتل شيء آخر

ــ أجل .. القتل .. الدم .. الوحشية ..

ــ وحشية تستحق اللعنات الأبدية .

ــ إنى أتساءل أى سبب يبرر القتل ؟

ــ نعم ، أى سبب ؟!

ــ والقاتل .. أى إنسان هو ؟.

ــ من كان يصدق أو يتصور ، رأيت قبل ذلك قاتلا .. صبى بقال .. وطالما ظننته وديعا كالحمام ..

— عجبت حقا !.

— ولكن أين المفر ؟.

— صدقت أين المفر ؟، وعما قريب سنسمع بالقبض عليه .

حدجه العجوز بنظرة حزينة ثم قال :

— لقد قبض عليه بالفعل .

— من ؟.

— القاتل .

— القاتل !، لم نسمع ولم تقرأ .

هز رأسه هزة العارف دون أن ينبس :

— ولكن من هو ؟

— على سريقوس .

— ذلك الأبله ؟

— كصبى البقال !.

— لذلك لم أره اليوم ولا مساء الأمس ؟

— ليرحمنا الله .

— وهل علمت بذلك زوجة المرحوم ؟

— طبعا ..

— الإنسان لغز .

— ضبطوا عنده نقودا .

— ربما كانت نقوده ؟.

— لكنه اعترف بالسرقة ، لهم وسائلهم .

— واعترف بالقتل ؟ .

— لا أدرى .

— لكنك قلت إنهم قبضوا على القاتل !

— هو ما قالت كريمة .

— أيعنى هذا أن السرقة كانت الباعث على القتل ؟

— أظن ذلك .

— كان بوسعه أن يسرق دون أن يقتل .

— الراجح أن المرحوم استيقظ فاضطر إلى قتله .

— كان طيبا لدرجة البلاهة .

— الإنسان كما قلت لغز .

— أكثر من لغز .

— أتدرى أن الشحاذ الذى نسمع مديحه النبوى كل ساعة كان فى شبابه فتوة داعرا ؟

— ذلك الرجل !

— ثم فقد كل شيء من قوة ومال وبصر فتسول .

— ولكن على سريقوس عثر على حافظة نقودى صباح الجريمة فأتانى بها .

— لعله أمكر مما نتصور .

هل تقع المعجزات بهذه السهولة أو هو بنيان من الأوهام يقوم على لا شيء ؟

— أما كان الأجدر به بعد ذلك أن يهرب ؟

— الهرب اعتراف .

— وكيف يخفى المسروقات فى حجرته ؟

— ربما ضبطت فى بيته .

— تهريبها إلى بيته لا يقل غباء .

— تلك حكمة ربنا .

— عندما قابلنى فى الصباح قبل اكتشاف الجريمة كان هادئا لطيفا كعادته .

— من الناس من يقتل القتيل ثم يمشى فى جنازته .

الثبات . احذر أن تفضح أطرافك اضطرابك الخفى . قد يوافيك التليفون

بضوء . وعاد العجوز يقول :

ـــ كنت أول من حقق معه .

ـــ أنت !

ـــ طبعا ، فأنا آخر من كان معه ليلا وأول من دخل شقته صباحا .

ـــ ولكن من يتصور ..

ـــ تلقيت سيلا من الأسئلة . وكنت أغلقت الباب بيدى ، وكانت النوافذ مغلقة ، ولكن وجدت نافذة مردودة دون إغلاق .

ـــ لعلها نسيت .

ـــ أكدت الزوجة أن جميع النوافذ مغلقة .

ـــ هل كسرها على سريقوس ؟

ـــ غير معقول فالكسر حقيق بأن يوقظ النزلاء لا المرحوم فحسب .

ـــ لعله طرق الباب ففتح له الرجل .

ـــ ولماذا يفتح النافذة ؟.. ثم إنه لم يكن بوسع الرجل أن يغادر فراشه ، وقد قتل وهو نائم عليه .

ونظرة عينيه .. وصوت الصمت .

ـــ ربما تمكن من الاختفاء فى الداخل .

ـــ أبدا ، لقد غادر الشقة قبلى وأنا من أغلقها

ـــ لعله ..

ماتت بقية الجملة إذ خنقها الرعب . أوشك أن يقول لعله تظاهر بإغلاق النافذة دون أن يغلقها . مع أن المفروض أنه لا يعلم بأن على هو الذى أغلق النوافذ . ورغم نجاته فقد ثلج من الرعب وتساءل العجوز :

ـــ لعله ماذا ؟

ـــ لعله فتح الباب بمفتاح آخر .

ـــ ربما ، ولكن لم فتح النافذة ؟

— الراجع أنها نسيت مفتوحة ..

— الله أعلم .

— كانت محنة لك ولكنك رجل طيب .

— لا أدرى كيف تركونى ولكنهم يحسنون عملهم .

— والجرائد سكتت فجأة . لا كلمة اليوم عن الجريمة .

— الله يرحمك يا عم خليل . لقد عرفته منذ ستين عاما .

— وكم يبلغ عمره ؟

— جاوز الثمانين .

— ومتى تزوج ؟.

— منذ عشرة أعوام .

— لكنه زواج عجيب ، أليس كذلك ؟

— لقد تزوج فى شبابه وأنجب ، ثم ماتت أسرته جميعا ، ولبث أرمل عمرا ، حتى تمت مشيئة الله ، وكان يحبها كأب قبل كل شىء .

— هذا هو المعقول .

— كان رجل جد وعمل ، وكان محسنا ، ساعدنى فى تربية أولادى الله رحمه .

— وكيف تزوج منها ؟

— كان يسافر إلى الإسكندرية لبعض الأعمال .

فقاطعه :

— أهى من الإسكندرية ؟

— كلا ، كان عند كل رحلة يقيم أياما عند صاحب له فى طنطا ، وكانت هى متزوجة ..

— متزوجة ؟.

— من ابن خالتها شاب بلطجى وضيع . وقد رآها عند صاحبه آه .. لقد

تكلمت أكثر مما ينبغي .

— ولكن كيف تزوجها ؟

— طلقت من ابن خالها فتزوجها .

— وتزوجت من رجل فوق السبعين !

— لم لا ؟.. لقد وفر لها الاحترام والطمأنينة .

فقال بذهول :

— والسلام !

وجعل يتذكر كلمات أمه الأخيرة ، ثم تساءل :

— ولكن البلطجي لا يطلق زوجة حسناء فكيف طلقها ابن خالتها ؟

— لكل شيء ثمنه ..

ورمش الرجل كالنادم على تسرعه . فقال صابر :

— ذلك ماض قد مضى ..

— لكنني أتكلم أكثر مما ينبغي ، والحق أنني كثيرا ما أهذى مذ رأيت دمه .. أستغفر الله العظيم ..

ربيبة بلطجي ، جارية سوقية ، وزوجة رجل فان ، مدبرة جريمة رهيبة ، خالقة لذات جنونية . معذبتك إلى الأبد . ومجرد وهم لا أساس له ساقك إلى فندقها الدامي ، ثم رمى بي إلى براثن هذه الحيرة القاتلة . كالوهم الذي دفعك تجرى وراء سيارة كالمجنون .

١٤

قهوة مضاعفة لتفيق من الأرق . ونظر إلى التليفون خلال سحب الدخان المتصاعدة من سجائر النزلاء . وتساءل متى تتكلم كريمة . وهطلت السماء فى الخارج بغزارة دقائق معدودة ثم أشرقت السماء ولكن الطريق غشاه الوحل . كريمة صامتة كالموت كأنها لا تدرى عذابه . وأنت تشرب أردأ أنواع الأنبذة وتسهد فوق فراشك حتى الفجر ، وتحلم حتى يخيل إليك أن النزلاء يسمعون صراخك ، وإذا تدهورت صحتك فلن يخفى ذلك عن عين الرقيب ، أما كريمة فلا يهمها شىء .

واستأذن فى الجلوس إلى ترابيزته ــ لازدحام الاستراحة ــ قادم لعله الوحيد الذى بقى من النزلاء الذين عاصروا يوم الجريمة فأذن له وهو كاره يتوجس ثرثرة مزعجة . وصدق توجسه إذ قال الرجل :

ــ قبضوا على القاتل .

فقال صابر مخفيا انزعاجه بابتسامة :

ــ سمعت ذلك .

ــ على سريقوس ؟.

ــ نعم .

حبك العباءة حول جسده وقال :

ــ مجرد سرقة لا كما ظننت .

ــ وماذا ظننت ؟.

ــ الحق أنى سيئ الظن بالنساء !

حدجه بنظرة مستطلعة فقال الرجل :

ــ زوجة جميلة وشابة وسوف ترث تركة لا بأس بها .

فقال صابر وهو يشد على أعصابه :

ــ دار برأسى نفس الخاطر .

فضحك الرجل قائلا :

ــ بعض الظن إثم .

ــ ألم يدر ذلك برأس المحقق ؟. ولكن كريمة صامتة كالموت . وهذا التليفون لا يحقق رجاء قط . والبرد والمطر والوحل لم تسكت صوت الشحاذ . وناداه محمد الساوى وهو يشير إلى السماعة فهرع إلى التليفون بتوسل معذب :

ــ آلو ..

ــ صابر ؟

لم يتخيل يوما أن صوتها بهذه الخيبة :

ــ إلهام .. كيف حالك ؟

ــ أضايقك ؟

ــ أبدا ، سترين أنه المرض وسوف أنتظرك اليوم .

إن قطعها بلا تمهيد لفوق الطاقة ولكن ما أيسر أن يجعلها هى القاطعة . يجب أن يبعدها عن وحل طريقه ولو بجراحة أليمة . وها هى لا تدرى شيئا عن أفكاره فتبتسم فى عتاب وتطالعه بصفاء لا يكدره شىء . آه .. كيف يمكن أن يحبها ذلك الحب العميق الصادق !. وتصافحا بقوة وهى تقول :

ــ ألا تشعر بالذنب ؟.

وتوقف عن الكلام وهى تنزع قفازها وتجلس قائلة بقلق :

ــ شد ما أثر فيك الزكام !.

ــ بل إنفلونزا خبيثة .

ــ ولا أحد يعنى بك ؟

ــ لا أحد ألبتة .

ــ ألم تستشر طبيبا ؟

— كلا .. وقد شفيت من المرض ولم يبق إلا ظله ..

— يسرنى أن أسمع ذلك ، ستشرب مزيدا من العصير .

ومضيا يتناولان الطعام وهى تنظر إليه أكثر الوقت .

— فكرت أكثر من مرة أن أزورك .

— أحمد الله أنك لم تفعلى ..

هزت منكبيها ولكنها لم تناقشه ثم قالت بابتهاج :

— أما أنا فلم أضيع دقيقة واحدة .

ستسمعك لحنا جميلا بعد أن أصابك الصمم .

— إنك ملاك .

— ألا تصدقنى ! إذن فاعلم بأنك ستبدأ حياة جديدة ، أو أننا سنبدأ حياة جديدة ، ما رأيك ؟

طارد فتوره إكراما لها وقال :

— رأيى أنك ملاك وأننى حيوان كسيح .

— رأس المال الذى تحتاجه تحت أمرك !

— رأس المال !

— نعم ، هو ما اقتصدته للمستقبل ، وثمن بعض حلى لا أستعملها ، ليس ضخما ولكنه يكفى ، استشرت زملاء خبيرين ، أؤكد لك أننا سنبدأ فوق أرض ثابتة .

— آه .. ليس لحنا جميلا فحسب . معجزة أيضا . هل كنت تحلم بذلك !.. رأس مال بلا سرقة ولا جريمة . ومعه الحب الحقيقى . إذن رد الحياة إلى عم خليل واستيقظ من الكابوس ! وتأوه بلا صوت :

— إلهام .. كلما غمرتنى بنبلك زاد اقتناعى بأننى غير أهل بك ..

— لا وقت للشعر !.

هى فى غاية السعادة والحماس . وإطفاء شعلتها سيكون جريمتك الثانية .

لكنها تمد يدها لتقطف ثمرة غير موجودة . ولم يجر لك فى بال أنه يمكن حل مشكلتك بهذه السهولة . ها هو الحب والحرية والكرامة والسلام فأين أنت !. ولماذا لم تقع المعجزة قبل الجريمة ؟.

ـــ فيم تفكر ؟. توقعت أن تفرح !.. أن تفرح كثيرا !

لم يبق إلا أن تصدمها بالحقائق لتشفى . قال متنهدا :

ـــ قلت لك إننى لست أهلا لنبلك فلم تصدقينى .

ـــ توقعت أن تفرح .

ـــ فات الوقت ..

ـــ يا ربى .. أنت لا تحبنى ..

ـــ إلهام .. الأمور معقدة جدا ، أنا أحببتك من أول نظرة ولكن من أنا ؟

ـــ لا تحدثنى عن أبيك ولا فقرك ولا عدم صلاحيتك ..

أنت تعذبيننى لأنك تشطريننى شطرين . والوسيلة الوحيدة لشفائك أن أصدمك بالحقائق .

ـــ لعلك ما زلت مريضا !.. إنك أمامى ولكننى أتساءل أين صابر ؟

ـــ أود ألا تتساءلى اليوم وألا تتكدرى ..

ـــ إن كنت مريضا ..

ـــ كلا .. ليس المرض ..

ـــ إذن فما هو ؟. لماذا قلت فات الوقت ؟

ـــ أقلت ذلك ؟

ـــ منذ ثوان !

ـــ أنا أعنى شيئا واحدا بكل إصرار وهو أننى غير أهل لك .

ـــ أرفض هذا السخف : أنت تعلم أننى أحبك .

ـــ وهذه هى جريمتى ، نحن للأسف لا نفر أمام الحب إلا فى الحب فقط .

ـــ ولماذا هى جريمة ؟

— لأنه كان يجب أن أقدم لك نفسى على حقيقتها .

— فعلت ذلك وقبلتك ..

— حدثتك عن أبى ولكننى ..

ثم واصل بمرارة :

— ولكننى لم أحدثك عن أمى !

رمقته بنظرة مستنكرة وهى تقول :

— أنا أحبك أنت ولا دخل للماضى فى ذلك .

— يجب أن تصغى إلى .

— بالله دعها ترقد فى سلام .

— الإسكندرية كلها تعرف ما سأحدثك عنه .

— لنحذف الإسكندرية من خريطتنا .

قال وحلقه يغص بالمرارة :

— لقد ختمت حياتها فى السجن !

حملقت فى وجهه كأنما تنظر إلى مجنون فقال :

— أرأيت ؟

ثم وهو يزدرد ريقه :

— ولذلك صادرت الحكومة أموالها ، وهذا هو سر فقرى بعد الغنى ، ولم تترك إلا وهما هلكت وأنا أبحث عنه .

صدمة قاسية يئن لها قلبك ولكنها ستفيق .

— لا يحق لى أن أحب امرأة إلا من النوع الذى كانت تعاشره ! ، كان يجب أن أتجنبك ولكن سحرنى الحب كما قلت لك .

إنها لا تستطيع أن تتكلم وهذا حسن ، أو لا يبقى أمامك إلا أن تعترف لها بما هو أدهى .

— هذا ما يعزينى عن خسارة الفرصة التى تهيئها لى ، وقد عشت حياتى

الماضية عيشة العبث بفضل مالها الحرام ، ولم يكن بينى وبين الاتجار فى الأعراض إلا خطوة ، ولعله العمل الوحيد الذى يليق بى .

اجتزت أشد العقبات . كأنك سعيد !. ويا ليت الليل لا يوجد . ولعل المحقق يعلم الآن بتفاصيل هذه القصة المخزية .

وحنى رأسه لها تحية ثم ذهب .

وفى عصر اليوم التالى دعى إلى التليفون . وشد ما انزعج عندما سمع صوت إلهام .

ـــ أهلا إلهام !

قالت بصوت متهدج :

ـــ صابر .. أردت .. أريد .. أريد أن أقول إن كل ما قلت لى أمس لا يهمنى !.

١٥

إلهام .. لست إلا عذابا . أما كريمة فقد جمعت بينكما الجريمة برباط لن ينفصم حتى الموت ، وحاجتك إليها كالجوع الكافر وإن قذف بك فى أعماق الجحيم . والوقت يمر مقطرا العذاب ولكن مروره بلا حدث يهب شيئا من الطمأنينة ، وسوف تجد وسيلة أو أخرى للاتصال بكريمة . وخير ما تفعلان فيما بعد أن تبيعا الفندق ثم تعيشا فى مدينة غريبة . وسوف تعيشان عيشة فطرية تلقائية فهى ليست كإلهام التى تلهبك بصوت التغيير والتعذيب . ولكن متى تنوى كريمة الاتصال بك !. وما العمل إذا نفدت النقود الباقية !. حتى عمل على سريقوس يقبله إذا أبقى له على الأمل فى الاتصال بكريمة يوما ما .. ترى هل يشنق الرجل ؟. لقد قتلت رجلا بيدك فما يضيرك أن تقتل الآخر بيد غيرك !. لكن متى تستيقظ من الكابوس ؟.

وقبل أن يغادر الفندق صباحا طلبته إلهام بالتليفون وسألته :

ــ هل ستجدد الإعلان ؟

فأجاب فى ضجر :

ــ كلا ..

فقالت بتودد :

ــ رجوت شخصا مهما أن يبحث عن الرقم السرى للرحيمى إن كان له رقم سرى !

ــ لم يجد شيئا طبعا ؟.

ــ لا للأسف ..

ــ لا تشغلى بالك ..

ــ لنا مراسلون فى الأقاليم وهم يقومون الآن بتحريات هامة .

— لسانى يعجز عن شكرك !

ثم سألت بصوت ينم على الحياء :

— ألا تفكر فى زيارتنا ؟

فقال بحزم :

— كلا ، مراعاة لصالحك قبل كل شيء .

ترى أتبكى أم تغالب البكاء .

— قلت لك لا يهمنى ..

— ولكنه يهمنى جدا ..

انقطع الاتصال بعد ذلك . تألم من جديد حتى حنق عليها من شدة تألمه . ما قيمة الجمال فى هذا العالم الدامى !. ألا تريد عيناها أن تريا إلا هذا الجمال الملعون ؟!.. وقبل أن يغادر موقفه رأى عم محمد الساوى يتطلع إليه باهتمام فابتسم إليه متوددا فدعاه إلى الجلوس . قبل الدعوة بامتنان خفى . وسأله العجوز :

— مستعجل ؟

— أبدا لا غاية لى وراء الذهاب .

فقال بارتياح :

— إذن فاجلس قليلا ، الحق أنى أشعر بوحشة منذ موت المرحوم . ولا أجد من أحادثه ..

— وأبناؤك ؟

— لا أحد منهم فى القاهرة ..

— كان الله فى عونك ..

لم يبق فى الاستراحة سوى رجلين ، وفى الخارج غطت أصوات العمال والعربات على مديح الشحاذ .

— أليس هنالك من جديد ؟

— لى صديق من المخبرين ولعله يدعى من العلم ما ليس له .

— ماذا قال ؟

— على سريقوس ، لم يجدوا أحدا غيره .

— لعله اعترف .

— لا أدرى .

— أغرته سرقة حقيرة .

— لقد أنكر السرقة .

— ألم يعترف بها من قبل ؟

— بلى ، ثم عاد فأنكرها .

— ولكن النقود ضبطت عنده !

— قال إن الزوجة جادت بها عليه .

خفق قلبه خفقة مؤلمة جدا :

— زوجة المرحوم ؟

— نعم .

— ولكن ، لماذا ؟

— على سبيل الإحسان .

— وهل كانت تحسن إلى الخدم الآخرين ؟

— سئل فى ذلك جميع الخدم ولكن ثبت أنه كان الوحيد .

وهو يزدرد ريقه :

— هذا غريب .

— الأغرب من ذلك أنه رجع فاعترف بالسرقة .

— والإحسان المزعوم ؟

— قال إنها كانت تجود عليه ببعض النفحات عندما يؤدى لها خدمات فى شقتها ، ثم عرف من وراء ظهرها مكان النقود فسولت له نفسه السرقة .

— وذهب ليسرق فقتل !
— أظن هذا .
— ورأى المحقق ؟
— من يدرى .. ولكنهم مقتنعون فيما يبدو بأنه القاتل .
— وربما يكون قد اعترف .
— ربما .
— لا شك أن الزوجة كانت تهبه قروشا .
— ربما .
— ولكن لماذا أنكر السرقة ثم عاد فاعترف بها ؟.
— من يدرى ؟
— هل للمسألة وجه آخر ؟
— آه .. من يقطع بذلك ؟

اكتشف لأول مرة — وهو ينظر من قريب فى وجه العجوز — أن لون عينيه أخضر باهت ، وكلما أمعن فيه النظر خيل إليه أنه يرى صورة جديدة لدرجة أنه تعذر عليه استحضار الأولى .

— أتظن أن للمسألة وجها آخر ؟
— من أين لى أن أعلم ؟

آه .. هكذا سيشعر البشر وهم يقتربون من الجحيم فى الآخرة .

— أنت تعلم الكثير ولا تقول إلا القليل .
— أخشى أن يكون العكس هو الصحيح .
— ألم يسألوا الزوجة من جديد ؟
— استدعوها للتحقيق أكثر من مرة ..
— ألم يكن لأقوال سريقوس دخل فى ذلك ؟
— بلى .

— أتثق بالمخبر كل الثقة ؟

— لكنها هى التى قالت لى بنفسها .

— الزوجة !

— نعم ، جاءت مساء أمس .

اختارت الوقت الذى لا يوجد فيه بالفندق . وعندما يدك زلزال الأرض دكا فماذا يهم التحقيق أو المحقق . وقد يستشف العجوز وراء أسئلتك دافعا أهم من حب الاستطلاع ولكن كيف تحذر الحر والنيران أن تشتعل فى ملابسك ؟ .

— هل تكلمت عن الإحسان إلى سريقوس .

— مجرد إحسان طبعا .

— هذا هو المعقول .

— لماذا ؟

— على سريقوس غير مقنع كرجل .

— أتحيط علما بهذه الأسرار ؟

— ليس كل رجل يصلح .

— لكننى عشت أضعاف حياتك .

— لعلك تشك فى سلوك المرأة ؟

— لم أقل ذلك .

— أنت إذن واثق من أمانتها ؟

غض العجوز بصره فى حزن . وصمت مليا . ثم قال :

— أنا لا أشك فى سلوك المرأة ولكنى متأكد من ذلك !

انظر كيف تتكشف عوالم من الفزع تحت سطح أملس من التراب :

— إذن فهى امرأة آثمة ؟

— نعم ويا للأسف .

— وعرفت ذلك من قبل مصرع صديقك ؟

— نعم ، ولكن راحة باله كانت أهم عندى من الحقيقة .

— ألم تصرح بآرائك فى التحقيق ؟

— طبعا ..

— صرحت بالعلاقة الآثمة التى بينها وبين على سريقوس .

— على سريقوس ! ، أنا لا أفكر فى على سريقوس .

آه .. هل وقع فى مصيدة !

— كنا نناقش موقفه .

— لكننا تحدثنا بعد ذلك عن المرأة .

— باعتبارها الطرف الآخر ؟

— كلا ، هنالك رجل آخر .

تعال . الجحيم يتسع لأكثر من رجـل !

— رجل آخر ؟

— زوجها السابق .

وهو يسترد روحه :

— الرجل الذى باعها ؟

— كانت مجرد صفقة لها ما بعدها !

— ولكن كيف عرفت ذلك ؟

— رأيته أكثر من مرة يتسلل إلى بيت أمها وهى هنالك .

ها هو الجحيم يعود أفتك نيرانا .

— وأخفيت الأمر ؟

— لو أبلغته المرحوم لقتلته .

— وقد قتل رغم ذلك .

— نعم ويا للأسف .

— كيف سمح لها بتلك الزيارات ؟

ـــ إيغاله فى الشيخوخة أنساه كل شىء حتى سوء الظن .

ـــ وقلت ذلك فى التحقيق ؟

ـــ قلته .

ـــ حققوا معهما ؟

ـــ ثبت أن الرجل كان خارج القاهرة ليلة الجريمة .

ـــ هذا لا يمنع من أن يكون مدبرها .

ـــ بلى ولكن التحقيق انتهى بإطلاق سراحهما .

ـــ كيف ؟

ـــ عندهم الأسباب .

ـــ لعلهما استغلا الخادم بمكر فائق ؟

ـــ أو أى أحمق سواه .

وهو يزدرد ريقه :

ـــ وربما كانت ظنون لا تقوم على أساس .

ـــ ربما .

ـــ لكنك قلت إنك متأكد ..

ـــ مغالاة بعض الشىء فى التعبير ..

ـــ عدنا من حيث بدأنا ..

وهو يهز رأسه فى حزن :

ـــ قلبى يحدثنى بأن ظنونى صادقة .

ـــ ولعله لا توجد علاقة بين الخيانة وبين الجريمة ؟

ـــ ربما ، وإلا فكيف أطلق سراحهما ..؟

ـــ على أى حال فقد أدى على سريقوس لهما خدمة لا تقدر بثمن

ـــ إذا كان هو القاتل .

ـــ ألا تعتقد أنه القاتل ؟

ـــ كل شيء محتمل .

ـــ أحيانا يخيل إلى أنك لا تصدق ذلك .؟

ـــ لم لا ؟.. ألا تذكر حديثى عن صبى البقال ؟

ـــ لعله القاتل إذن ؟

تنهد قائلا :

ـــ أعتقد أن القاتل سيقتل ولو بعد حين .

لن تذوق النوم حتى تحقق معها بنفسك . امرأة جهنمية لكن ما أغباها إذا حسبت أنها يمكن أن تعبث بك . ألم تقتنع بأنك قادر على القتل إذا أردته !. ولكن كيف تعرف عنوانها ؟. وعاد العجوز يقول :

ـــ زوجها القديم لم يدبر الجريمة وإلا لما أطلق سراحه بتلك السهولةِ ، أما الجريمة الأخرى ..

ـــ إنه ابن خالتها وليس من الشاذ أن يزور خالته .

ـــ الحق أننى شككت فى الأمر من قديم ، كانت أمها تقيم فى الفجالة غير بعيدة من هنا ، وكان المرحوم يصطحب زوجته إلى بيتها كلما اشتاقت إلى رؤيتها ، وإذا بالأم تقرر أن تنتقل إلى شارع الساحل رقم ٢٠ بالزيتون ، لماذا ؟. لم أجد لذلك تعليلا إلا أن تتخذه الزوجة عذرا للإقامة أياما عند أمها كل شهر ، ورغم معارضة المرحوم بادئ الأمر فقد انطلت عليه الحيلة فسلم بالواقع ..

آه .. لم يتخيل أن يظفر بطلبته بذلك اليسر ، ودون بذل أى مجهود من ناحيته ، لكن الجنون كان يعصف به عصفا . أجل كان الجنون يعصف به عصفا .

١٦

لولا يقينه من أن عينا من عيون الأمن تراقبه بطريقة ما لاندفع من فوره إلى الزيتون . لابد إذن من التريث حتى يجد حيلة جهنمية ، ولما نزل صباحا من حجرته رأى ظهر الساوى وهو منحن فوق مكتبه فخيل إليه لحظة أنه يرى عم خليل أبو النجا . ودهمته الحقيقة الغريبة ـــ وكأنها تدهمه لأول مرة ـــ وهى أنه أزهق روحا . وتساءل ترى هل يمكن أن يتذكره عم خليل بطريقة ما ؟. وتمهل قليلا وهو يصبح على العجوز ولكنه رد تحيته بعجله وعاد إلى دفتر الحساب وكأنه نسى تماما حديث الأمس كله . نسى الأسرار الرهيبة التى كان سيمضى حياته كلها وهو يجهلها . وتناول فطوره فى الاستراحة برأس ثقيل من أثر المنوم . كريمة .. لن أسمح لقوة فى الأرض بأن تجعل منى أبله ، ستجدينني قريبا فوق رأسك ضربة قاضية . افعلى ما تشائين ، خونى وتزوجى ، فإن حبل المشنقة فى يدى . لا تتوهمى أن حياتى أغلى من كبريائى . أما حديث المال والحرب فلا ينقطع فى الاستراحة كإنشاد الشحاذ فى الخارج . ودعته إلهام إلى التليفون . لشد ما يحنق عليها كلمة سمع صوتها فى أعماق دوامته .

ـــ ألا تقابلنى اليوم ولو بعض دقائق ؟

ـــ لا أستطيع .

ـــ اذكر سببا مقنعا .

ـــ لا أستطيع .

ـــ حتى لو كان الأمر يتعلق بأبيك ؟

تساءل بذهول :

ـــ أبى ؟!

ـــ نعم ..

— ولكن كيف ؟

— فلنتقابل اليوم !

حتى أبوه لا يمكن أن يستحوز على انتباهه فى هذه اللحظة النارية الدامية .

— لا أستطيع .

— لكنه أبوك الذى جئت للبحث عنه !

— ربما فيما بعد ..

— هل أجىء إليك ؟

فقال بضيق لم يخل من حدة :

— كلا ..

أى جديد جد عن الرحيمى ؟. وماذا يهمه الآن ؟. الزيتون هى كل شىء . وربما لم يكن الأمر كله إلا حيلة لاستدراجه إلى اللقاء . الزيتون الآن هى كل شىء . وهام على وجهه معذبا وهو يفكر بلا انقطاع . وشرب كثيرا من النبيذ الردىء ثم تخبط فى الشوارع مواصلا التفكير حتى آمن بأنه سينتصر على المخبر المجهول الذى يتعقبه . ها هو يصعد إلى حجرته لينام ولكنه لن ينام . المخبر هو الذى سينام . وعقب أذان الفجر بقليل غادر الحجرة فى حذر شديد ثم نزل على مهل إلى مدخل الفندق . رأى على ضوء المصباح السهارى خادما نائما وراء الباب المغلق فشعر بخيبة وغيظ . ولم يفكر فى إيقاظ الخادم ليفتح له إذ لم يستبعد أن يكون هو المخبر . تراجع حائرا وأنفاسه تتردد فى الصمت العميق . وطرأت فكرة لم يدرسها من قبل فبعثت حيويته من جديد فرقى فى السلم حتى السطح بلا توقف ولا تردد . وعندما وقع بصره على الشقة المغلقة تحت ضوء النجوم سرت فى أطرافه رعدة حتى أغمض عينيه من التأثر . واندفع نحو السور الفاصل بين سطح الفندق وسطح العمارة الملاصقة فعبره كالمرة الأولى . آه .. إنه يرتجف ولكن ما أحوجه إلى قوة أعصابه . ومضى إلى باب السطح ثم نزل فى ظلام دامس حتى مدخل العمارة المضاءة بمصباح سهارى . رأى حجرة البواب مغلقة .

والباب الخارجى مغلقا كذلك والمفتاح فى القفل . كل شىء معد كأنما بتدبير سابق ، دلف من الباب وأدار المفتاح ولكنه لم يطاوعه !. لماذا ؟. وشده بحذر فأخذ ينفتح فأدرك أنه كان مفتوحا ، ولماذا أيضا ؟. أراد أن يخرج ولكن اعترضه شبح رجل سد الفتحة سدا وهو يسأل بصوت جاف :

ـــ من ؟

بسرعة جذبه إلى الداخل مجازفا بحياته ، وفى اللحظة التالية طعنه بركبته فى بطنه فتقوس وهو يئن فهوى على رأسه بقبضته فسقط على وجهه . مرق إلى الخارج يخترق البرد والفجر والخلاء . عبر الطريق إلى بواكى الجانب الآخر ثم اتجه نحو الميدان . ولم يكد يخطو بضع خطوات حتى اصطدم بشبح فكاد يسقطه على ظهره . وقد تأوه قائلا :

ـــ آه .. أنا رجل ضرير ..

قال متعجلا :

ـــ لا مؤاخذة . الظلام شديد تحت البواكى ..

ـــ ربنا ينور بصيرتك ، دعوة مستجابة بإذن الله من سائل مسكين .

اقشعر من التقزز . هو الشحاذ دون غيره . حتى فى هذه الساعة من الفجر يسعى ، وواصل سيره وصوت الرجل يلاحقه :

ـــ حسنة لله تنور طريقك .

واستقل تاكسى وهو يتنهد ، سوف ينتظره المخبر طويلا ، وستعمى عيناه من التحديق هنا وهناك وغادر التاكسى فى شارع الساحل على بعد قريب من البيت المكون من دور واحد والظلام ينزع آخر غلالة قبل الشروق . طرق الباب لا يدرى عما سيفتح ولكنه سلم نفسه للمقادير . انفتحت الشراعة عن وجه كريمة !. وبسرعة واضطراب فتحت فدخل .

فى قميص النوم مشعثة الشعر خاملة المفاتن . همست :

ـــ جننت ؟!

ومالت إلى الحجرة على يمين الداخل معدة للاستقبال . وقفا وجها لوجه تحت ضوء مصباح عار :

— تصرف مخرب ؟ جننت ؟

وهو يثقبها بعينيه اللتين لم يغمضا :

— ربما ..

— ألم تفكر فى خطورة الزيارة ؟

— هو أهون من الانتظار بلا أمل .

— الانتظار ضرورة ، ألا تدرك أن حالى أدق من حالك !

— وأظل أنتظر حتى الموت ؟

— حتى يصبح الاتصال مأمونا ..

— عندك التليفون .

— صوتى يعرفه عم محمد .

— أى صبى بقال كان يمكن أن ينوب عنك فى طلبى .

— حققوا معى أكثر من مرة ، ركبنى الخوف ولم يعد فى رأسى عقل !

— أنت تدبرين جرائم القتل فى أثناء المضاجعة .

— لا ترفع صوتك فأمى نائمة ..

— أليست شريكة لك فى أسرارك ؟

— مجنون !.. حالتك غريبة !

— يجب أن أرى حجرة نومك .

— حجرة كبقية حجرات البيت .

— لا تراوغى ، يجب أن أرى من ينام فيها !

اتسعت عيناها وهى تقول :

— ماذا جرى لعقلك ؟

— ابن خالتك ، زوجك السابق ، أليس هنالك ؟

— من قال ذلك ؟، لا أحد هنالك ، ها هو الخراب يجيء بيدنا لا بيد الآخرين .

— ليكن ، لابد أن أرى بعينى .

أزاحها من أمامه وغادر الحجرة . فتح أول باب فرأى العجوز مستغرقة فى النوم . وفتح بابا آخر فرأى حجرة نوم ، حجرة نومها على الأرجح ، وفراشا ينفتح غطاؤه عن الثغرة التى انزلقت منها . ودار بالحجرات والمرافق فلم يجد أثرا لأحد . رجعا إلى موقفهما بحجرة الاستقبال وهو يقول بحنق :

— شتت عقلى ، فالرجل يجب أن يتجنبك فى فترة التحقيق .

— قلبى يحدثنى بأن مخلوقا لئيما أوقع بيننا .

— ألم يكن ابن خالتك زوجا لك ؟

— كان .

— وباعك للزوج الذى دبرت قتله ؟

— سيقبض علينا اليوم يا مجنون .

— أجيبينى ..

— أنت غبى ، جازفت بحياتى لأنى أحبك .

— فى هذا الماخور كان يجىء للنوم معك ..

— ألا تفرق بين الصدق والكذب ؟. أنسيت ما كان بيننا ؟

— أى امرأة لا تعجز عن إتقان التمثيل فوق الفراش .

— صدقنى لصالحنا ، كل ما فى رأسك أكاذيب .

— تظنين أن خوفى من المشنقة سيضطرنى إلى تركك للرجل .

— لا رجل فى حياتى غيرك ، صدقنى ، إن لم تصدقنى فى الحال سيأخذوننا قبل شروق الشمس .

— كذابة ، ماكرة ، حطمت حياتى كلها بكذبة قصيرة ..

— صدقنى ، أنا أحبك ، لم أدبر شيئا إلا من أجلك ، صدقنى .

ـــ حطمت حياتى بكذبة لتفوزى أنت وعشيقك بالثروة والحياة .

ـــ صدقنى قبل فوات الأوان ، أنت حبيبى ، ولا أحد غيرك ، خرج الرجل من حياتى من زمان ..

ـــ دبرت قسمة جهنمية ، فلى الجريمة ولك الرجل والثروة .

ـــ لا فائدة ، انتهينا ، اللعنة ، رأسك كالحجر ، كلمة أخيرة ألا تريد أن تصدقنى ؟

ـــ كلا ..

ـــ إذن ماذا تريد ؟

ـــ أن أقتلك ..

ـــ ثم تشنق ؟

ـــ فى ألف داهية ..

ودوى طرق على الباب كالقنابل . وطوقت البيت أصوات مهددة وأقدام ثقيلة . صرخت كريمة بيأس :

ـــ جاء البوليس ، ألم أقل لك ؟

انقض عليها كالمجنون ، وقبض على عنقها بيدين عصبيتين ثم ضغط بكل قواه ، على حين اهتز الجو من زلزلة دفع الباب ..

١٧

فى السجن وحدك . لا يزار من ليس له أهل . وإلهام تخطر كالحلم وهى تعرف الآن الحقيقة . شفيت ولا شك من الحب ولعنته . وها هى الجرائد تعيد القصة ، بل ها هى تكشف عما خفى عنك من أسرارها . والصور تملأ الصفحات . كريمة وعم خليل ومحمد رجب زوج كريمة الأول وصورتك والصور الجامعة للأب والأم . حتى إلهام الملائكية ، وبسيمة عمران ، الجرائد لا تترك كبيرة ولا صغيرة . فى سجن الموت تتحرر من علاقات الحياة كلها فلا تهمك الفضائح . أنت متحرر من الكبرياء والخجل كما كنت وأنت فى الرحم . صابر يقبض عليه متلبسا بقتل عشيقته . صابر له قصة . بسيمة عمران إمبراطورة الليل بالإسكندرية . عللته عند اليأس والإفلاس بجاه أب مجهول . البحث عن سيد سيد الرحيمى المزعوم . الحب ، القتل ، صابر مثال فريد للجمال والرجولة . غزواتك فى الإسكندرية . الحب الأعمى الذى رفعه إلى المشنقة . هو مثال أيضا للقسوة والأنانية والدعارة ، وكم عجبوا للجانب الخفى الذى كشف عنه حب إلهام . لم يفكر مرة فى إغوائها . اعترافاته المتابعة بين يديها . رفضه استغلالها على أى وجه وتعففه عن أموالها وهو مختنق بأزمته الأخيرة . أمه أنشأته على مستوى رفيع من الجاه فلم يكن بد من أن يعثر على الأب الوجيه المزعوم أو أن يرتكب أشنع الجرائم وهى القتل . وانظر كيف ارتاب المحقق فى أمرك من أول الأمر . ورصدت حركاتك فى الشوارع وبقالة كلوت بك وفتركوان . وكيف كلف عم محمد الساوى بأن يحدثك عن خيانة كريمة ؟. أيها العجوز الماكر . يا لى من أحمق !، والزوج الأول محمد رجب أنكر أى علاقة بالقتيل ، ولكن العاشق وقع فى الفخ . ترى أأنكر دفعا للشبهات أم أنه قرر الحقيقة بلا زيادة ؟. ليس فى الصحف ما يقطع باليقين فى هذه المسألة التى ساقتك إلى

الهلاك . هل يمكن أن تعرف السر بعد الموت ؟. وعم محمد النّاوى أخطأ وهو ينسج أكاذيبه مما هدد التدبير كله بالفشل لولا ذهول العاشق فقد اعترف له بأنه شهد بخيانة الزوجة وفى ذات الوقت أخبره بأنها تزوره فظن لحظة أن الشاب قد فطن إلى التناقض الواضح ولكن صدمته بحكاية الخيانة أذهلته عن إدراك التناقض الواضح . آه .. هذا حق ويا لى من أحمق . ووصف تسللك للذهاب إلى كريمة بإسهاب . كيف عبرت السور إلى العمارة المجاورة وكيف ضبطك البواب وهو راجع من صلاة الفجر حتى اضطررت إلى ضربه حتى الإغماء ، وكيف انتبه المخبر الذى يراقب الفندق تحت البواكى إليك عند اصطدامك بشحاذ ضرير وسماع صوتك وأنت تعتذر إليه !. آه .. ذلك الشحاذ الكريه البشع الأعمى .

الجرائد لا تترك كبيرة ولا صغيرة . إنها تشهر بحماقتك وعماك مع نخبة من رجال الفكر . تحدث أستاذ فى الجامعة عن الزواج غير المتكافئ بين عم خليل وكريمة باعتباره المسئول الأول عن الجريمة . وقال كاتب يوميات صحيفة : إن المسئول الأول هو الفقر ، هو الذى أغرى زوج كريمة الأول ببيعها إلى زوجها الثانى ، وأن كريمة شهيدة لصراع الطبقات وفوارقها . وناقش أستاذ بالخدمة الاجتماعية نشأة صابر فى أحضان تاجرة أعراض ورواسبها فى نفسه . وقال أستاذ علم نفس إن صابر مصاب بعقدة حب الأب وأنه يمكن تفسير اندفاعه الإجرامى بأمرين مهمين ، فهو أولا وجد فى كريمة بديلا عن أمه فأحبها . وأن لا شعوره أصر على الانتقام فقتل صاحب الفندق كرمز للسلطة وطمع فى مصادرة أمواله كما صادرت الحكومة أموال أمه . وقال شيخ من رجال الدين إن المسألة فى جوهرها مسألة إيمان مفقود ، وأن صابر لو بذل فى البحث عن الله عشر ما بذله فى البحث عن أبيه لكتب الله له جميع ما طمع إليه عند أبيه فى الدارين .

قرأ صابر تلك التعليقات بفتور وحيرة ثم هز منكبيه استهانة وهو يقول : « لكن أحدا لم يعرف إن كانت كريمة صادقة أم كاذبة ، ولا إن كان الرحيمى موجودا أم لا » .

ويوما دعى إلى مقابلة محام فى حجرة المقابلات بالسجن . وقد خيل إليه أنه رآه قبل ذلك ولكنه لم يتذكر متى أو وأين . وارتاح لوقار شيخوخته فصافحه وهو يتساءل :

ــ هل سيادتك المحامى الذى قيل إن الدولة ستختاره لى ؟

ــ كلا .

ثم بصوت منخفض عن الأول تواضعا منه :

ــ أنا محمد الطنطاوى .

ولكن صابر وضح جهله بالمحامى الكبير ، فسأله بارتباك :

ــ من وكل سيادتك عنى ؟.

ــ اعتبرنى متطوعا ..

فقال بنبرة اعتذار :

ــ لا تؤاخذنى إن صارحتك بأننى لا أملك مالا على الإطلاق !

فابتسم الأستاذ قائلا :

ــ أنا الأخ الأكبر لإحسان الطنطاوى مدير إدارة الإعلان بجريدة أبو الهول .

ــ آه .. أتعلم أننى سألت نفسى أين رأيتك من قبل !

ابتسم الأستاذ فسأله صابر بتأثر :

ــ هل سعى لديك لتتولى الدفاع عنى ؟.

ــ أجل ، إذا شئت ..

هتف صابر بغتة :

ــ إلهام ؟!.

ابتسم الأستاذ مرة أخرى دون أن ينبس بكلمة فأغمض صابر عينيه مليا ثم فتحهما متسائلا :

ــ والأتعاب ؟

— المصروفات الضرورية للإجراءات فقط .

هل يمكن !. كيف تتصور !. نفقة جنازة الحب !.

— لكنه جهد ضائع يا أستاذ محمد .

— مفهوم اليأس لا يوجد فى قاموسنا .

— قتلت اثنين مع سبق الإصرار ، واعترفت ..

— ولو ..

— وإلهام .. لم ..؟

— قيل إنه ليس لك أهل فليس بكثير أن تكون لك صديقة .

— حتى بعد أن عرفت ..؟

— تقبل ذلك دون مناقشة .

جفف عينيه بطرف كمه وهو يقول :

— الدمعة الثانية فى عمرى كله ..

— لا عيب فى ذلك ، ولندخل فى الموضوع .

— لقد اعترفت كما قلت لحضرتك .

— هنالك ظروف .

— أى ظروف يمكن أن تنفعنى ؟

— النشأة ، الحب ، الغيرة ، سلوكك الأمين تجاه إلهام .

— لن أجنى من ذلك إلا مزيدا من التشهير .

— لن نسلم باليأس قبل أن يقع .

— الحكاية كلها كالحلم ، جئت من الإسكندرية للبحث عن أبى فوقعت أحداث غريبة نسيت فيها مهمتى الأصلية حتى وجدت نفسى أخيرا فى السجن ..

ثم وهو يتنهد :

— والآن أكاد أن أنسى كل شىء إلا المهمة الأصلية التى جئت من أجلها ..

— ولكن لا جدوى من التفكير فيها الآن ، ربما أشرت إليها فى مرافعتى باعتبارها أول جناية كتبت عليك قبل أن تولد ..

— ولكن إلهام دعتنى بالتليفون ذات يوم لأمور تتعلق بأبى .

— وماذا قالت لك ؟

— لم أذهب لمقابلتها محموما بالانتقام من الأخرى .

— أؤكد لك أنها لا تعلم عنه شيئا .

هز صابر رأسه فى حيرة ثم قال :

— إن نشر أخبار الجريمة فى الصحف يعتبر إعلانا ضخما من نوع غير معهود ولعله يجىء بالنتيجة التى عجز عنها الإعلان المتواضع بجريدة أبو الهول .

— أنا على علم لا بأس به بأخبارك ولكننى على يقين من أنك لن تجنى من الاهتمام بأبيك الآن إلا التعب الضائع فإن مجيئه أو عدمه سواء فى موقفك الأخير .

— لا يبعد إن جاء أن تحدث معجزة ..

— كيف ؟

— أعنى إذا صح أنه وجيه حقا وذو نفوذ .

— فليكن أكبر الوجهاء ولكن كيف يمكن أن يغير قوانين الدولة ؟

— اسمع يا أستاذ ، لقد كانت أمى ذات نفوذ يوما ما ، فاستطاعت بنفوذها أن تتحدى قوانين الدولة تحت سمع المسئولين وبصرهم !

— بالله خبرنى عن الأمل الذى يراودك إذا جاء أبوك ؟

تردد قليلا ثم قال :

— ربما استطاع أن يسهل لى سبيل الهرب .

— تماديت فى الخيال ولن تجنى من وراء ذلك إلا تعب القلب .

فنفخ قائلا :

— على أى حال أنا شاكر فضلك ، وأرجو أن تبلغ امتنانى إلى الآنسة إلهام ،

وإلى الأستاذ إحسان ، وسوف تجدنى تحت أمرك فى كل ما تريد ، وأما عن أملى المضحك فإننى لن أيأس كما تقول أنت إلا إذا وقع اليأس .

* * *

وقدم صابر إلى المحاكمة . وأحيلت الأوراق إلى المفتى . ونطق بالحكم . وقد تابع المرافعات باهتمام ولكنه تلقى الحكم بذهول رغم توقعه له من أول الأمر .

* * *

وفى السجن دعى إلى مقابلة الأستاذ محمد الطنطاوى . وقابله الأستاذ بعطف وشجعه بكلمات مناسبة ثم قال له :

ـــ لا يزال أمامنا الاستئناف ثم النقض .

فسأله بحزن :

ـــ كيف حال إلهام ؟

ـــ ليست على ما يرام ، والظاهر أن مأساتها التى تحدثت عنها الجرائد قد هزت أباها من الأعماق فجاء من أسيوط لزيارتها وأصر على أخذها معه بعض الوقت تغييرا للجو والتماسا للصحة .

فارتفع صوت صابر وهو يقول :

ـــ إذن استيقظ من جحوده ، أما أبى ..

ابتسم المحامى الشيخ قائلا :

ـــ بهذه المناسبة هل تصدق أننى أحمل لك أنباء عن أبيك ؟

هتف ذاهلا :

ـــ لا ..

ـــ بلى ..

ثم مستطردا بعد وقفة قصيرة :

ـــ ألم تسمع عن الصحفى الذى كان يوقع عموده اليومى بإمضاء

« الصحفى المخضرم » ؟. طبعا لا ، فلقد انقطع عن العمل منذ عشرين عاما : وهو جار لى بمصر الجديدة ، وكان قديما أستاذى بكلية الحقوق ، ومن أفقه من عرفت فى الشريعة ، وقد جاءت سيرتك على لسانى وأنا مجتمع به أول أمس ، ولما قصصت عليه قصة أبيك قاطعنى :

— أتقول سيد سيد الرحيمى ، لكننى أعرفه !

فقلت له لعل المعنى شخص آخر ، فقال :

— سيد سيد الرحيمى ، الوجيه الغنى الجميل ، وقد كان شابا فى الخامسة والعشرين أو نحو ذلك من ثلاثين عاما ..

هتف صابر :

— ألم ير الصورة فى الصحف ؟

— إنه الآن لا يعرف الصحف وفضلا عن ذلك فهو ضرير .

— يا للخسارة !.. ولكن لا يمكن تجاهل التشابه فى الاسم .. والصفات .. والعمر ..

— هذا ملحوظ بطبيعة الحال .

— وأين يقيم ؟.

— للأسف لا يدرى شيئا عن ذلك .

— ألم يحدثك عن زواجه الأول ؟

قال المحامى مبتسما :

— قال إنه لم يكن له من هواية فى هذه الدنيا إلا الحب .

— لكن أمى هجرته ، وتلك حادثة لا يمكن أن تنسى .

— فى حياة رجل كالرحيمى ، تعد فيها النساء بعدد الأيام ، لا يمكن أن تعرف من الهاجر ومن المهجور ..

— أمى لم تحدثنى عن ذلك الجانب من حياته .

— ربما لم تعرفه .

— ولكن الزواج علاقة لا تخفى .

— قال على برهان — أعنى الصحفى المخضرم — إنه كان يتزوج كما كان يرافق ، وكان يمارس الحب بشتى أنواعه .. الجنسى والعذرى ولا يعتق ناضجة أو مراهقة ، أرملة أو متزوجة أو مطلقة ، فقيرة أو غنية ، حتى الخادمات وجامعات الأعقاب والمتسولات !.

— يا للعجب !.

— نعم ..

— ألم يوقعه ذلك فى متاعب ؟.

— كان يقهر المتاعب .

تساءل صابر بعينين حائرتين :

— ومهنته ، ماذا كانت مهنته ؟.

— كان وما زال مليونيرا ، لا عمل له إلا الحب ، وكلما وقع فى مأزق هاجر من مدينة إلى مدينة ، مواصلا ممارسته لهوايته ..

— ولكن وثيقة زواج أمى ما زالت معى .

— وربما وجدت وثائق أخرى لا حصر لها .

— ألم ترفع عليه قضايا شرعية ؟

— من يدرى ، ولكنه طليق وفى هذا ما يكفى ..

فقال صابر بسخرية مرة :

— وقوانين الدولة ؟!

— لكنه لم يقع ، وقال الأستاذ برهان إنه غوى مرة عذراء من أسرة كبيرة محافظة ولكنه غادر القطر فى اللحظة المناسبة !

— ومتى رجع ؟

— لم يرجع ، تعلق فؤاده بالعالم الكبير ، وراح ينتقل من بلد إلى بلد ، بل من قارة إلى قارة ، معتمدا على ملايينه ، جاريا وراء النساء من كل شكل ولون .

— وكيف عرف صاحبك ذلك ؟

— كانت تصله منه رسائل على فترات متباعدة جدا .

— وهل عنده فكرة الآن عن مكانه ؟

— كلا : كانت الرسائل تجيئه بلا عنوان ليس عليها سوى اسم البلد إذ أنه لا يحب الاستقرار فى مكان أكثر من أيام .

— لا شك أنه رجل مشهور فى الخارج .

— ذلك هو الراجح بالنسبة لأى مليونير وإن قضى الحذر فى مثل حالته باتخاذ أسماء وشخصيات شتى .

— متى تسلم صاحبك آخر رسالة منه ؟

— صاحبى لم يذكر شيئا على وجه التحديد ، ولا تنس أنه جاوز التسعين عمرا ، ولكنه يذكر أنه تلقى رسائل منه فى جميع القارات .

— لكنه يعرف بلا شك كل شىء عن أسرته .

— لا أسرة له فى مصر ، كان أبوه مهاجرا من الهند ، وقد عرفه صاحبى فى نادى الصفوة فتوطدت بينهما أسباب الصداقة ، وعن سبيله عرف ابنه الوحيد سيد ، وهو ابن وحيد لا أخ له ولا أخت ، وقد مات الأب منذ أربعين عاما تاركا لوريثه ملايين الجنيهات التى اقتناها فى تجارة المشروبات الروحية : فلا أحد له فى مصر إلا الذرية التى يحتمل أن يكون أنجبها فى مغامراته العديدة .

— مثلى أنا !.

— مثلك أنت إذا كان هو أباك حقا .

— لا ينبغى أن أشك فى ذلك بعدما عرفت من خصاله !

ابتسم المحامى ملتزما الصمت .

— خصاله هى خصالى ولكن بينا يلهو هو فوق الكرة انزوى أنا فى السجن منتظرا حبل المشنقة .

— لكنه لم يقتل !

ـــ صاحبك الضرير لا يعرف كل شيء .

ـــ هو على كل حال مليونير .

ـــ الأهم من ذلك أن قوانين الدولة لا تهدده .

ـــ لكنك كنت تعلم أنك فقير وخاضع لقوانين الدولة .

ـــ وكنت أعرف من يكون أبى .

ـــ وماذا كانت النهاية ؟.

ـــ أجل للأسف ، أمى عرفته خيرا من صاحبك المخضرم فاستطاعت أن تقتنى ثروة طائلة وأن تتحدى القانون ، ولولا سوء الحظ ..

ـــ لكنه لا يعرف سوء الحظ .

ـــ ولم يكن من المعقول أن أرضى بأن أعمل قوادا بعد أن عرفت أصلى .

ـــ لم تحسن تقليد الأصل .

ـــ بحثت عنه .

ـــ وباعترافك نسيته .

ـــ بسبب امرأة وهو عذر خليق بأن يقبله !

ـــ لكنه ليس هو حاكمك .

ـــ لكنه هو الذى نسينى .

ـــ ربما ظنك فى براعته وأنك غير محتاج إليه ؟

ـــ لو لم تهجره أمى لكان لى ذلك .

ـــ لكنها هجرته .

ـــ وما ذنبى أنا ؟

ـــ لا ذنب لك فى ذلك .

ـــ وذلك كان السبب الأول لجريمتى .

ـــ سبب بعيد جدا لا يعتد به عند تحديد المسئولية .

ـــ ولكنه أخطر من سبب يعرض صدفة مثل مقابلة كريمة .

ــ سيظل القانون هو القانون .

تنهد بعمق ثم قال :

ــ لعله من الخير ألا أقطع بأنه أبى !

ــ ذلك كان رأيى ولكننى وجدتك متعطشا لمعرفة أى شىء .

ــ وماذا عرفت ؟، يخيل إلى أننى لم أعرف شيئا مجديا .

ــ بلى للأسف .

ــ وفضلا عن عدم جدواه فما زال بعيدا عن اليقين .

ــ وبسبب هذه المعرفة الطارئة أصبح الرجل أعز منالا من الأول .

ــ هذا راجح جدا .

ــ وقد ضاعت الحرية والكرامة والسلام وإلهام وكريمة !

فلاذ المحامى بالصمت مرة أخرى ، فقال صابر :

ــ ولم يبق إلا حبل المشنقة .

فقال المحامى بنبرة عتاب :

ــ هنالك النقض .

وتردد مليا متفكرا ثم قال مبتسما :

ــ وثمة خبر آخر حدثنى به الأستاذ برهان ..

ــ ما هو ؟

ــ ما يدرى الأستاذ يوما إلا والرحيمى يطرق بابه !

هتف صابر :

ــ حقا ؟

ــ كان ذلك فى أكتوبر الماضى !

صرخ صابر بلا وعى :

ــ أكتوبر !.

ـــ أجل .

ـــ كنت فى ذلك الوقت أبحث عنه فى الإسكندرية .

ـــ وقد أمضى فى الإسكندرية ستة أيام .

ـــ يا للجنون !، كنت أسأل مشايخ الحارات ولكننى أجلت فكرة الإعلان فى الصحف طالما كنت فى الإسكندرية أن أتعرض لسخرية أعدائى وجها لوجه .

ـــ ألم تكن المهمة أخطر من سخرية الأعداء ؟

ـــ بلى واحسرتاه !..

ـــ لا تحزن لعله لم يكن يطلع على الصحف .

ـــ هيهات أن يهون ذلك من حسرتى ..

ـــ لا تجعلنى أندم على مكاشفتى لك .

وجعل ينظر إليه فى حسرته ثم قال محاولا انتزاعه منها :

ـــ كان فى طريقه إلى الهند وقد أهدى إلى صاحبى كتاب « كيف تحتفظ بشبابك مائة عام » كما أهداه صندوقا فاخرا من الخمر المعتقة .

ـــ لا يبعد أن يكون هو الذى رأيته فى السيارة ، وهل وقع على هديته بإمضائه ؟

ـــ أظن ذلك .

ـــ ألا يمكن أن أرى الكتاب ؟

ـــ سآتيك به .

ـــ وإذا أردت الاحتفاظ به المدة الباقية ؟

ـــ لا أظن صاحبى يرفض طلبك .

ـــ شكرا ، وماذا أيضا ؟

ـــ وقال صاحبى، إنه ما زال محتفظا بحيوية الشباب وأفكاره وضحكاته وقال : « إنى أتجول بين قارة وأخرى كما يتجول أصبعك بين طرفى شاربك » وقال أيضا « لا تعد نفسك من الأحياء حتى تطوف بأربعة أركان المعمورة وتمارس فيها

الحب » .

— ألم يذكر فى الحديث أحدا من أبنائه ؟

— محتمل أن يكون له فى كل قارة أبناء ولكنه لا يتحدث إلا عن الحب ، وقد شرب حتى ثمل ثم غنى أغنية غرامية سمعها فى إحدى قبائل الكنغو ..

— ويسكر ويغنى ولا يخطر له أن يسأل عن أبنائه ؟

— ربما تغير مفهوم الأبوه إذا امتدت فوق كثرة غير عادية .

— لكن الأبناء هم الأبناء قلوا أو كثروا !

— كثيرا ما تقع متناقضات غريبة إذا تصور أب قوى أبناءه على مثاله .

— يا له من دفاع !

— نحن نغتفر لبعض الشواذ هفوات لا نغتفرها لغيرهم فما بالك بشخص غريب الأطوار كذلك الرجل !

— آه رأسى يدور ..

— لا تجعلنى أندم ..

— لعله ما زال بمصر .

— لقد أرسل إليه بطاقة تحية من الخارج .

— لعله يزورنا قبل الإعدام .

— لا شيء مستحيل .

— آه .. كنت أزور إلهام وأخاك الأستاذ إحسان كل أسبوع ولا أدرى أننى بطريقة ما قريب منك وأنك جار لبرهان صديق الرحيمى !

— هكذا تقع الأمور عادة ..

— كانت هناك فرصة نادرة للبحث .

— الأمل مع ذلك لم ينعدم .

— كيف .. أى أمل ؟

— أن نستبدل المؤبد بالإعدام .

— أى أمل ؟

— سنجد عند ذاك فرصة لاستئناف البحث .

— وإذا تأيد الإعدام ؟

بسط المحامى راحتيه فى تسليم ثم قبضهما فى وجوم :

— فى حالة الإعدام يبقى لى من الزمن ما يستنفده النقض ثم الفترة السابقة للتنفيذ ، ألا تستطيع أن تقدم لى فى تلك المدة خدمة حقيقية بمحاولة الاتصال بالرجل ؟

— يا بنى القانون هو القانون ، والرحمة والواجب يقتضياننى ألا أضيع وقتى فيما لا طائل وراءه ، والأجدى أن أراجع ملف القضية والقانون الجنائى .

— بالرغم مما سمعت عنه لا تريد أن تقتنع بقوته ؟

— أنا رجل قانون ، وأعلم أن مصيرك بيد القانون وحده .

— قد يدركنى فى فترة الانتظار أفلا تأخذنى على قد عقلى ؟

— إن لم يكن حقا كما تتصوره فأهلا به وسهلا ولكن لا سبيل من ناحيتى إليه

— إنك رجل ذو خبرة وعلم وجارك يبدو أثيرا لديه .

— الاتصال به إن لم يكن مستحيلا فهو يستلزم وقتا لن يتسع لك ، ولا أملك وسيلة بحال ، وسوف يتطلب منا الاتصال بجميع سفاراتنا فى الخارج كخطوة أولى ، ولا يبعد أن ينتقل فى أثناء الاتصال إلى بلد لا تمثيل سياسى لنا فيه للأسباب التى تعرفها .

آه .. الذكرى التى تموت وهى على طرف اللسان . وتشكيلات السحب التى تعبث بها الرياح . وعصارة الألم المنصهرة وراء القضبان . والسؤال الأعمى والجواب الغشوم .

وقال :

ـــ يبدو أنه لا جدوى من الاعتماد على الغير .

فابتسم المحامى فى تسامح وهو يقول :

ـــ بل هناك جدوى فيما هو معقول .

فهز منكبيه قائلا :

ـــ فليكن ما يكون .

رقم الإيداع : ٣٩٧٦
الترقيم الدولى : ٦ ــ ١٦٧ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه